



مركز وثائق
وقلريخ مصر المعاصر

٣٨

مصر

والحركة
العربية



د. محمد عبد الرحمن برج



مركز وثائق ونادى عصر المعاصر

إشراف: د. يونان لبیب رزق
ميد التحرير: خلف عبد العظيم الميرى

مصر والحركة العربية

تأليف

د. محمد عبد الرحمن برج

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التمتيد	٣٠١
رقم التسجيل	٣٦٥٢٦



١٩٩٢

تقديم

بينما تبدو « الفكرة العربية » وهى تتراجع باستمرار منذ السبعينات لتحل محلها « الروح القطرية » فإن « مصر النهضة » منذ أن صدرت تقف فى صفوف أصحاب الفكرة رغم ما يتعرض اليه هؤلاء من استهزاء من بعض غلاة القطريين من جانب ، ومن اتهام بالعلمانية ، بعد أن أصبحت العلمانية تهمة (!) ، من غلاة المتدينين من جانب آخر .

يبدو هذا الانحياز من أنه خلال السنوات القليلة التى صدرت فيها « مصر النهضة » كان من بين إصداراتها ٠٠ « تحول الفكرة العربية فى مصر » (العدد الحادى عشر) ، « مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال إفريقيا » (العدد السادس عشر) ، « الديبلوماسية المصرية والقضية الفلسطينية ١٩٤٧ - ١٩٤٨ » (العدد العشرون) .

ويصدر هذا الانحياز لدى القائمين على « مصر النهضة » من اعتقاد راسخ بأنه لا ماضى لمصر بدون أمتها العربية ، ولا مستقبل

لها دون القيام بدورها الطبيعي داخل هذه الأمة ، ومن اقتناع يصل الى حد اليقين بان تراجع الفكرة العربية في مصر أو في غيرها إنما هو تراجع مؤقت ويقعل فاعل !

تأسيسا على هذا الفهم يجيء هذا العدد من « مصر النهضة » عن « مصر والحركة العربية » للأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن برج أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة المنوفية .

والدكتور برج يتناول هذه العلاقة خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى ، وهي الفترة التي شهدت مولد هذه الحركة في الشام وبدايات انتقالها الى مصر .

لعل ذلك هو الذي دفعه الى أن يخصص فصلا عن الشوام في مصر ولعله أيضا هو الذي حدا به الى أن يتعقب مختلف الأنشطة العربية في البلاد خلال تلك الحقبة التي لازال الدور العربي خلالها في مصر يشكل قضية خلافية .

ولقد أنهى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن برج دراسته تلك بفصل عن « موقف مصر من القضايا العربية » خصصه للموقف المصري من قضية احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب عام ١٩١١ ، ومع أننا نعتقد أن هذا الموقف قد انطلق بالأساس من مشاعر دينية وليست قومية فإن لصاحب الكتاب رؤيته التي تستحق المناقشة .

أيضا قليلة هي الأعداد من مصر النهضة التي خلت من الحواشي منها هذا العدد ، وقد استعاض الأستاذ الدكتور برج عن هذا الخلو بأحالة القاريء الى مجموعة المراجع التي يمكن أن يستزيد منها في الموضوع . إذا أراد !

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وبعد ..

فهذه دراسة أشرف بتقديمها للقارئ العربى شغلنى العطل
فيها حين من الزمان بعد أن أخذ البحث حنى فى التاريخ العربى
الحديث والمعاصر فترة طويلة عن عمرى بدايته منذ الستينات من هذا
القرن وصدرت لى عدد من الكتب فى هذه الناحية .

كان القصد من وراء هذه الدراسة التى أشرف بتقديمها اليوم
توضيح دور مصر فى الحركة العربية . وليس القصد بالطبع التأكيد
على عروبة مصر من وراء هذه الدراسة فذلك أمر مفروغ منه
ومعروف ، إنما الهدف أنه اذا كانت الحركة العربية فى عصرها
الحديث قد بدأت على أرض الشام فان مصر كان لها اسهامها
الواضح فى هذه الناحية .

فعرضنا أولا فى هذه الدراسة الى حركة التحديث فى العالم
العربى والتى بدأت بمصر بعد عرض موجز لما سبق هذا التحديث

وما كانت عليه البلاد العربية على العهد العثماني ثم تناولنا بناء الدولة في مصر الحديثة والتي جاءت على اثر التصدع الذي اصاب البنيان الذي كان قائما على العهد المملوكي العثماني مع مجيء الحملة الفرنسية ثم ليكمل محمد على من بعد ذلك وهو أحد أدوات النظام القديم هدم هذا البنيان ويقم عليه الدولة الحديثة ، ثم يخرج ،بالتجربة من مصر الى بلاد الشام ليقم عليها دولة شبيهة في كثير من وجوها بتلك التي اقامها في مصر .

لقد أحدث الحكم المصري لبلاد الشام تغييرات جوهرية واصلاحات مهدت السبل كي تصبح هذه البلاد الأرض التي تشهد بداية الحركة العربية في عصرها الحديث . وبرغم قصر العهد المصري بالنسبة للعهد العثماني ، فقد ارسيت فيه قواعد جديدة لم تكن موجودة من قبل : فأنهى الحكم السطحي وبدأت الدولة تطبق نفس سياستها في مصر بالتدخل في شئون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة . وانشئت المدارس لنفس الغرض الذي انشئت من أجله في مصر وهو تقوية الجيش بالعناصر الصالحة ومن ثم توغرت أهم أدوات القومية وهي المدارس والجيش الوطني الذي يلحق به المجندون من أبناء البلاد على اختلاف منازلهم وطوائفهم .

وحين انتهى الحكم المصري لبلاد الشام لم يستطع العثمانيون ملأ الفراغ الذي تركه هذا الحكم حتى يمكن القول ان حروب الشام وما نتج عنها لعبت دورا هاما في صدور حركة التنظيمات العثمانية والتي كان من اثرها انتشار موجة المدارس العثمانية في الشام والعراق ونشاط الجمعيات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية .

ومع ان منشور التنظيمات أعلن مبدأ المساواة بين المسلمين وغيرهم ، الا أن الحكومة لم تستطع أن تطبق المبدأ تطبيقاً مطلقاً ، فظلت الخدمة العسكرية قاصرة على المسلمين وحدهم بينما دفع المسيحيون الجزية ، كما ظلت الوظائف بصفة عامة ولاسيما الوظائف الادارية والقضائية محصورة في يد المسلمين . وهكذا أدت التنظيمات الى زعزعة نظام الملل دون أن تدمجها في كيان المجتمع اندماجاً تاماً . وأصبحت هذه المؤسسات مجالا خصبا للنشاط الأوربي الثقافي والديني والسياسي . وكان لذلك أسوأ الأثر في الولايات العربية لاسيما بلاد الشام حيث تكثرت الأقليات المسيحية ، وبينما كان المسلمون يتجهون الى السلطنة ظلت هذه الأقليات تتجه الى الدول الأوربية لحمايتها ، وبمعنى آخر انتهت التنظيمات الى توسيع الهوة بين المسلمين والمسيحيين حتى كانت المذابح التي شهدتها تلك البلاد .

وخرج أبناء الشام من بلادهم فرارا من تلك المذابح وقصد بعضهم مصر بينما قصدوها بعد ذلك فرارا من عهد السلطان عبد الحميد وعلى أرض مصر كان نشاطهم . وقد تناولنا رواد تلك الحركة العربية وما قاموا به على الأرض المصرية من تحرك كان له اثره الكبير على تلك الحركة . وكان لوجودهم في مصر بالطبع اثره الكبير في بروز دورهم ولم تكن لتقول ذلك بدافع من دوافع التعصب الوطني وإنما تركنا للأحداث ان تشرح ذلك في موضوعية على قدر ما وفقنا الله .

ثم ختمنا بتلك الدراسة ببيان موقف مصر من أحد القضايا العربية الهامة في تلك الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى وهي قضية احتلال طرابلس الغرب من قبل الايطاليين وأوضحنا مدى

مساهمة المصريين في نصرة اخوان لهم في الجيرة واللغة والدين والتاريخ .

والأقل ان الدافع الديني كان هو الدافع الأقوى لموقف مصر من التصدي للعدوان الايطالي على طرابلس الغرب ، فان الذي ينبغي توضيحه في هذه الدراسة ان قضية الاحتلال الايطالي على طرابلس الغرب كانت من أهم قضايا الخلاف بين رواد الحركة العربية والاتحاديين . ومن ثم فان علينا ان ننظر الى موقف مصر من هذه القضية على انه كسب كبير للحركة العربية . وكان من الطبيعي ان تتوقف الدراسة عند بدء الحرب العالمية الأولى ذلك ان تلك الحرب كانت منعطفا خطيرا وقاصلا كبيرا بين ما كان يجري قبلها وما حدث بعدها من انتهاء الحكم العثماني للبلاد العربية ليبدأ بعده نضال لتلك البلاد في مقاومة استعمار اوروبي جاء بفرض سلطاته على تلك البلاد .

والله الموفق

الفصل الأول ---

بدء حركة التحديث في العالم العربي

حين نتحدث عن حركة التحديث في العالم العربي ينبغي أن نشير في ايجاز الى ما كانت عليه بلاد هذا العالم في الفترة السابقة على هذه الحركة .

كانت فلسفة العثمانيين في حكم الولايات التابعة لهم حتى القرن التاسع عشر تقوم على اساس ان تتخلف الدولة بقدر ما تستطيع من اعباء الحكم المباشر . فتترك الرعية يدبرون شئونهم بانفسهم طالما ظلوا على ولائهم لها . فاذا احتاجوا مثلا الى شيء من تعليم التمسوه عند من يحسنونه أو لا يحسنونه ، واذا استبد بهم داء التمسوا له الطب عند بعض العارفين أو الجاهلين وأمور الزراعة يديرها أهل الفلاحة مع ملتزميهم . وأمور الصناعة تجري على ما يرسمه أهل الحرف في طوائفهم . والتعليم في الأزهر والمساجد يسير على ما لوف اعتاده العلماء والمجاورون من الطلاب . يجري هذا كله دون أن تتدخل الدولة في رسم سياسة معينة لشئون الزراعة أو الصناعة أو التعليم أو التطبيب الى غير ذلك مما تنهض به الدولة الحديثة .

والدولة العثمانية قانعة بهذا • كلمة السلطان تذكر على المنابر مقرونة بالدعاء له بالتأييد وبإسمه تنفذ الأحكام وتجرى الحدود ، وانحصرت وظيفة الحكومة فى أضيق نطاق ، الدفاع عن البلاد اذا هددت بغزو واقامة الحدود بين الناس وجباية الأموال •

وسعت الدولة فى ضبط العلاقات الأوروبية العربية وتوجيهها فى أوضاع محددة اتقاء الفتنة ، عندما رأت أوربا تتحرك وتحاول أن تمديدتها الى الشرق الأدنى بقلك المشروعات والمحاولات التى بذلها أفراد من الأوروبيين المغامرين من جنسيات مختلفة لأحياء الطرق البحرية (العربية) التى كانت قد هجرت لتستخدم بدلا منها رأس الرجاء الصالح •

فلما بدأت محاولات احياء الطرق القديمة للتجارة (طريق البحر الأحمر السويس) رفض السلطان العثمانى رفضا باتا أن يسمح للسفن الأوربية أن تبحر فى البحر الأحمر الى أبعد من ميناء جدة شمالا • وحرم على السلطات الحاكمة فى مصر استقبال سفن أوربية بالسويس والاذن لركابها باختراق الأراضى المصرية فى طريقهم الى الاسكندرية •

كما أن ضعف البحرية العثمانية منذ أواخر القرن السادس عشر كان مسئولا عن انهيار السيطرة العثمانية على اليمن وخروج الأتراك منه على يد أئمة صنعاء فى عام ١٦٣٥ • وكان هذا الضعف مسئولا عن عجز العثمانيين عن بسط سلطاتهم على الامارات العربية فى الخليج العربى وبالتالى عجز العثمانيون عن بسط نفوذهم الى داخل الجزيرة العربية ، بعد أن أعوزتهم القواعد على البحر الأحمر والخليج العربى ، ولم يبق للأتراك فى شبه الجزيرة العربية الا الحجاز وكان للإشراف السلطة الفعلية عليه •

وكان لضعف السيطرة البحرية العثمانية في البحر المتوسط منذ القرن السابع عشر نتائج خطيرة على مستقبل بلاد المغرب العربي فضعفت أسباب الاتصال بينها وبين السلطة العثمانية ووهن سلطان الدولة على ولاياتها العربية •

وعلى هذا لم يبق للدولة العثمانية من ملكها العربي سوى مصر والشام والعراق والحجاز بعد أن انكمشت سلطاتها بخروج اليمن وأمارات الخليج ومشايخاته وإنهيار السلطة العثمانية على الولايات الغربية •

في هذه الولايات العربية (مصر والشام والعراق والحجاز) يرسل السلاطين نوابا عنهم لحكمها (هم الباشوات) •

وكان من المتوقع مع ضعف القبضة العثمانية على الولايات العربية أن يبرز إلى الوجود الفكر القومي لكن حال دون ذلك أمران :

الأول : الشعور العام بالانتماء إلى عالم كبير أكبر من الوطن للعربي ذاته هو العالم الإسلامي وكان هذا الإحساس وهذا الشعور من شأنه عرقلة نمو الفكر القومي بل سيظل لدى الكثيرين أن مفهوم العثمانية والإسلام شيء واحد حتى قيام الحرب العالمية الأولى •

الثاني : تأخر حركة التحديث في العالم العربي لتسببه أوروبا بقرون عديدة ومن شأن التحديث أن يبرز سلطان الدولة وكيانها ومفهومها ومقوماتها وهو أمر افتقده العالم العربي حتى القرن التاسع عشر •

وكانت مصر أولى الولايات العربية التي تشهد حركة التحديث ثم تنقل التجربة المصرية إلى أرض الشام في كثير من وجوها على عهد محمد علي •

عاشت مصر طوال قرون ثلاثة تحت الحكم العثماني (من القرن السادس عشر الى التاسع عشر) دون أن تتعرض لأحداث خطيرة كغزو خارجي أو نكبة عامة من شأنها أن تثير بين الناس الاهتمام العام وتحفزهم الى التفكير المشترك والعمل الجماعي لمواجهة الحدث الخطير وهذا كله من اقوى العوامل فى بناء الرأى العام والقومية الواحدة . والأمثلة كثيرة فى التاريخ الأوربي الحديث . خذ مثلا الأراضى المنخفضة وكيف كانت تحديات البحر وسطحها المنخفض عنه حافزا لدى ابنائها للعمل المشترك لمواجهة خطر هذا البحر الأمر الذى قوى الاحساس القومى لدى ابنائها . كما كان شحذ هم الأسباب لطرد المسلمين من الأندلس ومن آخر معاقلم فى غرناطة عام ١٤٩٢ حافزا لتقوية الشعور القومى . ثم حروب المائة عام بين كل من فرنسا وانجلترا التى كان من شأنها تقوية الروح القومية لدى الفرنسيين لطرد الانجليز من أراضيه بل أن الهزيمة التى منى بها الانجليز فى تلك الحرب وما أعقبها من حروب أهلية (حرب الوردتين) لعبت دورها فى تدعيم الروح القومية وتدعيم سلطة الملكية معا على يد أسرة التيودور . لم يحدث شيء من هذا فى مصر من هذه القرون الثلاث ، لم يشهد المصريون الا أحداث (محلية) لم يكن من شأنها مهما بلغ بعضها من العنف ما يثير الاهتمام العام بين المصريين قاطبة .

وبقيت كل طائفة أو كل اقليم بل كل مدينة أو قرية تواجه ماينزل بها بوسائلها الخاصة حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر التى مهدت للقضاء على هذا النظام العثماني المملوكى بأضعاف عنصرية الأساسيين السيطرة العثمانية والاستبداد المملوكى .

عاش المصريون فى ظل هذا النظام وليس أبداع فى الوجود مما هو كائن لا يرقى اليهم الشك فى قوة السلطة العثمانية والأمراء

وقد رتهم على حماية بلادهم • حقيقة حدثت ثورات فى مصر قبل الحملة الفرنسية على مصر لكنها لم تتجاوز الطابع المحلى ولم يكن شعارها أبدا الخروج من نطاق السيادة العثمانية •

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر فإذا بالمصريين يرون مدافع الفرنسيين تقصف بالقوات المملوكية وتفر من أمامها منهزمة ويترك أحد زعماء المماليك الساحة الى الشام والآخر الى الصعيد • وهكذا تسرب الشك الى نفوس المصريون فى قوة النظام الذى خضعوا له قرونا طويلة • كانت غزوة بونا بريت أول غزوة (أجنبية) تعرضت لها مصر منذ أيام الحروب الصليبية ، فكانت بمثابة انفجار كبير دوى فى سمع المصريون وفى ظل المقاومة الوطنية تقاربت طوائف المجتمع العربى ، وفى هذا التقارب بزغ فجر جديد من الوعى القومى كان هو أحد المحاول التى ساعدت على هدم النظام القديم •

ومهما كان اختلاف المؤرخين والكتاب بشأن الآثار التى خلفتها الحملة الفرنسية على مصر ، فالذى لا شك فيه أن هذه الحملة برغم الفشل الذى منيت به والثورات التى واجهها بها الشعب المصرى كانت بدء الاتصال بين شرق عربى منفلق وغرب أوروبى •

أن من الخطأ أن تنكر أن الحملة لم يكن لها أى تأثير ولكن من الخطأ كذلك المبالغة فى هذا التأثير •

جاءت الحملة مفاجآت المصريون والدولة العثمانية وهذا يدل على جهل الناس حتى رجال الحكم بتطور العلاقات الدبلوماسية بين الشرق والغرب • حقيقة وصلت انباء عن الثورة الفرنسية تجد لها اشارات فى الجبرتى وفى نقولا الترك وتجد اشارات لما صاحب هذه الثورة من قبل الملك والملكة والاشراف • الى آخره لكن لم يكن

هناك المام بتطور السياسة الفرنسية أو تطور الحرب بين فرنسا وانجلترا ، هذا التطور الذى أدى الى تحول الفرنسيين لغزو مصر . واصبحت مصر رغم انفها مسرحا وعنصرنا رئيسيا فى السياسة الدولية .

جاء الانجليز الى مصر لطرد بونابرت ولكنهم لم يخرجوا بعد خروج حملته فبقوا عامين آخرين (١٨٠١ - ١٨٠٢) ولولا الضغط الفرنسى لخراجهم ما كان هذا الخروج . ثم اذا بهم يعودون بعد اعوام اربعة بتلك الحملة المعروفة بحملة فيريزر ١٨٠٧ ، اى ان مصر شهدت خلال فترة لا تزيد عن عشر سنوات ثلاث غزوات خارجية . وهكذا انتهى عصر اغلقت مصر على نفسها الأبواب أو أصبحت الدول الأوروبية تتنافس على امتلاك هذا الموقع الهام فى المواصلات الدولية مستغلة ضعف الدولة صاحبة السيادة على مصر .

ولمنا بصدد تفصيل الآثار العلمية والسياسية والاجتماعية التى جاءت بها الحملة فذلك كله معروف مدروس لكننا نريد التركيز فقط على أن من أهم نتائج الحملة هو زعزعة ثقة المصريين فى قدرة النظام القائم على حمايتهم .

حدث الالتحام بين جيش فرنسا الثورة بقيادة بونابرت وجيش المماليك الذين استهانوا بقوة هذا الجيش الغازى وظهر هذا عندما علم مراد بك بنيا نزول الفرنسيين الاسكندرية وقوله انه ذاهب ليدوسهم بخيله وسيلقى بهم فى البحر . ولم يكن لدى المماليك من ذكريات عن الفرنسيين الا منذ أيام الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع . لم يدرك المماليك أن الانتصار الذى تحقق فى القرن الثالث عشر على الغرب الأوروبى ما كان له أن يتحقق فى أواخر القرن الثامن

عشر • لقد صار الحال غير الحال • دخل العالم العربى فى حوزة العثمانيين وانتقلت زعامة هذا العالم ممثلة فى الخلافة الاسلامية الى الاستانة ، وما صاحب هذا من انزواء العرب فى المجال الدولى سياسيا وعسكريا واقتصاديا خاصة بعد تحول طرق التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح وما صاحب ذلك من أساليب الحكم العثمانى التى اشرنا اليها من بقاء كل شىء على ما هو عليه دون تطوير • يقابل هذا فى الغرب الأوروبى فى هذه القرون الخمسة تطور سريع ، فالجنود الذين قادهم بونابرت يختلفون من حيث التسليح عن جيوش لويس التاسع فأسلحة الأول أشد فتكا والفرسان والمشاة والمدفعية بتنظيم وتكتيك جديد ، ولاؤهم للدولة لا للمجماعات والأشراف ومن اليهم وجيش بونابرت لم يعد ذلك الجيش الاقطاعى الذى كان عليه أيام لويس التاسع وفرنسا الثورة غير فرنسا العصور الوسطى وما صاحب ذلك من نهضة فى الصناعة والتسليح • بينما كان هذا بعيدا عن مصر والعرب فى هذه القرون الخمسة فكانت النتيجة معروفة انتصار القوة الحديثة والحضارة الجديدة على القوة الاقطاعية وعلى حضارة العصور الوسطى •

والواقع أنه منذ ذلك الوقت تبدد الوهم الذى يخيم على العقول فى الشرق وأدركوا أن أوربا أقوى وأن على أبنائه أن يبحثوا عن سر تلك القوة ليصطنعوها ويقتسبوها • وهذا الاحساس هو بداية الطريق على طريق القومية •

حاول الفرنسيين أن يبعثوا قبسا أو شعاعا من الروح للقومية لدى المصريين منذ وطئت أقدام بونابرت مصر • أخذ يحدث المصريين من بلدهم وأمجادها القديمة وحضارتها وفضلها على العالم وكان من بين ما قاله مثلا لماذا يأتى القاضى من القسطنطينية وفى بلدكم

الأزهر وعندكم علماء الاسلام وفعلا اختار أحد القضاة قاضيا لمصر
ولكن الناس لا ترضى بغير قاضى القسطنطينية •

وإذا كان بعض الكتاب يبالغ فى دور الدواوين التى أوجدها
الفرنسيون فى مصر وأنها كانت لتعويد الناس حكم انفسهم بانفسهم
فذلك كله من قبيل المبالغة فالمعروف انها وغيرها من الاصلاحات
قصدها مصلحة الحاكم وحده •

والرجوع الى تاريخ الجبرتى هام فى هذه الفترة لمعرفة كيف
تأثر بما شاهده لدى الفرنسيين من أمور أثارت انتباهه كالمكتبات
أو أثناء محاكمة سليمان الحلبي أو أبحاث العلماء وغيرها ، كان
الجبرتى يملك موهبة سيكلوجية وشفافية نفاذة مكنته من استيعاب
حقيقة الدخلاء • فالمماليك أرقاء دخلاء استجلبوا الى مصر من
القوقاز ، والعثمانيون كذلك دخلاء بما فيهم الانكشارية الذين كانوا
يروضون باستمرار والفرنسيون عنده أيضا دخلاء أتوا من بلاد
الفرجة لكنهم بدوا فى نظر الجبرتى عام ١٧٩٨ متطفلين وكانهم
وقدوا من عالم آخر كما أنهم كانوا أشد تهورا فى اعتدائهم على
الحرمة الاسلامية فى استهانتهم بالتقاليد والعادات الموروثة •

وعندما عمد الفرنسيون الى التأثير على المصريين باقامة
منجزات للعلوم الأوروبية زار الجبرتى هذا المعرض ولم يستثر
اهتمامه • ووصف المعارضات بأنها لعب أطفال للتأثير فنيا لكننا
لن نخدع ببساطة • وعندما اغتيل القائد العام للقوات الفرنسية
الذى خلف نابليون اقيمت للمقاتل محاكمة عادلة قبل تنفيذ حكم
الاعدام فيه وشهد المحاكمة وأثرت فيه عدالة المحاكمة • تعجب
الجبرتى لأنهم لم يقتلوا القاتل توا وفى الحال على الرغم من انه
قتل كبيرهم وسارى عسكرهم ثم بعد هذا تجرى محاكمته • هذا

أسلوب جديد فى إجراء العدالة لم يعرفه المصريون من قبل انما فيماعدنا هذا لا يظهر الجبرتى ارتياحا لما جرى عليه الفرنسيون فى حياتهم الاجتماعية وفى لهوهم وخروجهم والمسارح التى انشاوها .

اخذ المصريون عليهم أنهم تسببوا - بما كانوا يظهرونه من انواع المجون والخلاعة فى مهرجانات اعيادهم وفى مراقصهم - فى افساد اخلاق اهل البلاد وتشجيع العامة على اتيان المخازى والمعاصى ومشاركتهم فى ارتكاب الآثام .

ولم يفهم المصريون المر من وراء اصلاحات الفرنسيين فتصدى الكثيرون لها من كنس الشوارع واطضاء الحارات والأسواق بالقناديل وفى ذلك يقول الجبرتى .

« واذا مروا بالليل ووجدوا قنديلا اطفاه الهواء أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التى هو عليها ولا يقلعون المسمار حتى يصلحهم صاحبها على ما احبوه من الدراهم » .

وكان من الممكن أن تؤتى هذه الاصلاحات ثمرتها المرجوة لو أن هناك أرضا مشتركة بين المصريين والفرنسيين وتفهم الفرنسيين لنفسية هؤلاء المصريين الذين كرهوا كل ما جاء به (الكفار) الذين احتلوا بلادهم وهم المسلمون الأفضل منهم عقيدة وإيمانا .

لكن يمكن القول أنه اذا كانت الحملة الفرنسية قد هزت النظام القائم وزعزعت الثقة فى هذا النظام فان الضربة الأخيرة لهذا النظام العثمانى المملوكى جاءت على يد أحد أدوات هذا النظام وهو (محمد على) .

وبدأت عملية بناء الدولة الحديثة في مصر • ولم تكن عملية الهدم سهلة أو ميسرة فالعناصر التي كان يتألف منها النظام ما زالت في قوتها وكفائتها رغم ما أصابها من ضعف وتخاذل وفقدان للمنفعة والايامن بها • وتباشير الوعي القومي الذي أفرزته الأحداث التي مرت بالبلاد منذ عام ١٧٩٨ لم يكن من القوة والنضوج بحيث يكفي للقضاء على النظام القديم أو التصدي له • وتألّبت على الحاكم الجديد اصحاب المصالح المكتسبة من الأجناد والأمرأ والملتزمين والعلماء وزعماء العشائر البدوية وغيرهم كثيرين •

وفي الحقيقة لم يكن هدم النظام القديم هدمًا لبناء من طوب وحجر انما هو هدم لعقلية ونفسية شعب عاش في أوضاع وقوالب معينة ثلاثة قرون ثم أوقف في عنف وغلظة ليشهد تحطيم هذه الأوضاع والقوالب وقد كانت عزيزة عليه رغم أنه لم يكن سعيدا بها لكنه بدأ يشهد حكومة من نوع آخر ، مكونة لضبط كل شيء •

وعانى محمد علي كثيرا وهو يتلمس الأدوات الصالحة للبناء ، تلمسها في رجال من العهد القديم وتلمسها في اخلاط من الغرباء الذين توسم منهم المعرفة أو الخبرة ومن أوروبيين وأرمن وغيرهم ولكنه أدرك آخر الأمر ان البناء لن يقوى عليه غير أهله فراح يعمل على إيجاد الأدوات الصالحة للعمل من المصريين فأنشأ المدارس كما أنشأ الجيش الوطني ومهد بذلك لبناء البلاد سبيل العمل في دواوين الحكومة ومنشأتها وحملهم شسرف الدفاع عن بلادهم وعلى هاتين القاعدتين المدارس والجيش أو العلم والقوة قام بناء النهضة المصرية الحديثة في القرن التاسع عشر •

ومضى المصريون على عهده في اتخاذ سياسة خارجية نشطة تهدف الى تكوين ملك عضود له ولأبنائه من بعده •

مما لاشك فيه أن فتوح محمد على للشام والسودان من قبله كانت تهدف قبل كل شيء الى تأمين مصر نفسها • لكنه لا يمكن القول أن محمد على في فتوحه كان يهدف الى تدعيم القومية العربية • حقيقة الأمر أن محمد على اكتشف امكانيات العالم العربي وخصائصه المميزة وأن ابنه ابراهيم حاول أن يثير العاطفة العربية وليس ثمة فرق في الحقيقة بين الأب والابن في الأهداف فقد كانت فكرة الوصول الى ملك وراثي تستحوذ على تفكيرهما •

يصعب على المؤرخ أن ينسب الى محمد على - وهو الذي كان يفاوض فرنسا على غزه والجزائر لحساب فرنسا وبأموالها أي تفكير قومي عربي •

واما ما أورده الأستاذ الرافعي من قول ابراهيم عندما سئل الى أي مدى سستصل فتوحاته بأنه الى المدى الذي يتكلم الناس ويتفاهمون بلسان عربي فليست اذا كان قد قالها ابراهيم حقيقة الا شعورا منه بأهمية المنطقة التي أقدم على فتحها (بلاد الشام) وارتباطها الكبير بمصر •

لم تختلف حرب الشام في دوافعها الحقيقة عن دوافع أية حملة أخرى لمحمد على لكنها كانت بعثا للكلام عما سماه البعض نوايا محمد على (العربية) وأهدافه في ازكاء روح القومية العربية • فهناك من قال أن حلم إقامة امبراطورية عربية قد راودته سنوات طوال قبل حرب الشام وأنه واضع اللبنة الأولى في الوعي العربي •

ويحمل أنيس صايغ غايات محمد على من هذه الحرب كما وردت في المحفوظات التاريخية وحسب تعبير محمد على نفسه على النحو التالي « إعادة الأمن الى نصابه واسترجاع حقوق عزيز

مصر • وعمل الخير للأمة الاسلامية لخروج العثمانيين على الدين
والشريعة وتخليص البلاد من الفساد ودفع المصائب التي أنزلها
العثمانيون بالمسلمين وتوحيد كلمة المسلمين والمحافظة على شعائهم
وتقاليدهم وابقاء العائلة وتأمين سلامة الحدود وخدمة الدين والدولة
واحباط مساعي خصوم العزيز وخصوم عائلته وتخليص البلاد من
الظلم والغدر وخلع السلطان محمود واتقاء نار الفتنة وانقاذ الأمة
الاسلامية من كارثة القشتت والاضمحلال وتخليص المسلمين من
نير الظلم وتحصيل استراحاتهم ورفاهيتهم وتحديد الحدود وتأمين
الضبط والربط ، •

وليس فى ذلك شيئاً من الفكر العربى او غير ذلك مما يحاول
بعض المؤرخين والكتاب تحميله للأحداث •

واذا ذكر بعض الكتاب ان ابراهيم باشا قد ذكر فى احاديثه
ان شمس مصر قد غيرت منه وجعلته عربيا وعلى فرض انه ذكر
ذلك فلم يكن ذلك عن ايمان بالعروبة او اقتناع بها بقدر ما هى فكرة
او سبيل لتمكينه من فتوحاته • ومن هذا المنطلق يرى بعض المؤرخين
ان محمد على كان يعرف أهمية ان تضم الولايات العربية تحت
حكمه وانه لم يتشبث بحكم المورة كما تشبث بحكم الولايات
العربية • وانه لم يقنع فى الجزيرة العربية بفتح الحجاز بل سعى
الى فتح كل الجزيرة فيما عدا مناطق منها فى الجنوب وعلى ساحل
الخليج العربى ثم لما وائته الفرصة لضم ولايات الشام تحت حكمه
لم يتردد •

يرى المرحوم الأستاذ / شفيق غريال ان محمد على بعد حرب
اليونان قل وثوقه بامكان وضع سياسة مشتركة بين القاهرة
والقسطنطينية وزاد ايمانا بان محمودا (السلطان محمود الثانى)

ورجاله يسيرون قوما نحو الهاوية ، فاحب أن يتخذ العدة للمستقبل
وان يتخذ الضمانات اللازمة .

وهذه الضمانات حسية ومعنوية : توطيد النفوذ المعنوي في
العالم العثماني ولدى الحكومات الاوربية بالمضى في سياسته
العمرائية ، ونشر حكمه المباشر في اقطار اخرى من العالم العثماني
بقية كلها شر حكومة السلطنة ، ويعطيه ملكها الموقع الأمن والموارد
التي تستطيع بها أن يكون على حال من القوة تمنع عنه اطماع
الطامعين . وهذه الاقطار هي الولايات الشامية الأربع حلب
وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية في الجزيرة
العربية على الخليج والبحر الأحمر . هذا اكبد والعراق والمناطق
فيما بين الشام والاناضول . هذا مما يترك للظروف . ثم يتساءل
فهل تصور لها كيانا سياسيا أو ما نسميه وحدة عربية ؟ ثم يجيب
المرحوم غريال على ذلك بقوله . سؤال كبير ان اجنبا عنه سليا
عدونا الصواب ونسبنا اليه قلة ادراك لعناصر وروابط بارزة ، لغة
واحدة ، وارث ثقافي مشتركة ومصالح مشتركة وبالنسبة للحياة
الاقتصادية كتلة واحدة . وان اجبنا عنه ايجابا عدونا الصواب
ايضا لبعض الشيء ونسبنا لعصر سابق ماهو ، على وجه التحقيق ،
من خلق العصور اللواحق وقد نعدو الصواب ان قلنا ان محمد
على ادرك الفكرة في عمومها وانها مما يمكن التشبيد عليه في حالة
الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يكن قد قرره بعد ، بل ترك تقريره
تبعاً لظروف الحال ان حتمت ظروف التقسيم أمكنه ان ينقض ما حدث
في القرن السادس عشر وبناء العالم العربي من جديد ، ولكنه لم
يكن قد يئس بعد من مستقبل الوحدة العثمانية وان كان قد يئس
من السلطنة .

ويرى بعض المؤرخين ان محمد على انتهن فرصة طلب السلطان
له باعداد حملته ضد الوهابيين الى أن يجعل لنفسه كيانا خاصا

قبل ان يقوم بصلته في (بلاد العرب) فاقترح على الباب العالي بواسطة وكيله المقيم في الاستانة ان تكون مصر ولاية ممتازة شأنها في ذلك شأن ولاية الجزائر ، وأوضح له ان هذا الاجراء ضروري حتى تنتهي الحرب في الحجاز ، وتذرع في طلبه هذا باضطراب الاحوال السياسية في أوروبا واحتمال تدخل الدولة العثمانية في بعض الحروب ، فاذا لم يكن لمصر مركزها الممتاز المستقل عن الدولة ، فقد تقع فريسة حصار إحدى الدول المعادية لتركيا بينما تكون جيوش مصر مشغولة في الجزيرة العربية ، وضرب لذلك مثلا باحتمال محاصرة إنجلترا للموانئ المصرية وبذلك تتعرض مصالح مصر التجارية للخطر وتتعرض أيضا مصالح الحرمين ، وحيث ان تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها فان امتيازها يضمن حيادها ومصالحها الاقتصادية .

توضح الوثائق العربية المحفوظة في دار الوثائق القومية طموح محمد علي الى السيطرة على الشام قبل ان يقوم بأي حرب في الحجاز وقد طلب الى الباب العالي ان تحال اليه ولاية الشام قبل ان تتحرك جيوشه الى بلاد العرب لكي يسوق حملتين ، احدهما تخرج من مصر والأخرى من الشام ، وبذلك يضمن نجاح المهمة الشاقة التي كلفه بها السلطان . وقد كان لهذا الطلب الجريء صداه العنيف في بلاط السلطان ، واتهمه اعداؤه وحاسدوه هناك بأنه يغلب مصالحه الشخصية واطماعه الإقليمية على مصلحة الدولة ، وقالوا ان حملة يقوم بها الباشا أو ابنه إبراهيم عن مصر ، كفيلة بارجاع بلاد العرب الى حكم السلطان ، وقد رد محمد علي على أولئك الحاسدين من رجال الباب العالي في كتاب بعث به الى وكيله محمد نجيب أفندي في الاستانة يقول فيه :

«ان ردى على هؤلاء هو قصة جحا المشهورة عندما بعث ابنه ملا الجرة وصفعه على قفاه قبل ان يحملها متبها إياه الا يكسرها،

ولما قيل لجما لماذا تصفحه ولم يكسر الجرة بعد ، اجاب أنه يجب أن ينبه ويصنع أولا حتى لا يكسرها • اذ ماذا يفيد الصقح بعد كسر الجرة • ، وكتب له فى خطاب آخر ان مصلحة الحجاز فقط هى التى دفعته الى هذا الطلب وان ليس له مطمع فى غير مصر التى وصفها بأنها (القطر الذى ينحسر وزراء الدولة دون الوصول اليه) •

وأخيرا قرر محمد على أن يفض الطرف مؤقتا عن تمسكه بولاية الشام بعد أن فهم من مقابلة وكيله نجيب أفندى للمصدر الأعظم ان جميع طلباته لا يمكن النظر اليها بعين العطف والرعاية الا بعد أن تقوم الحملة المصرية الى الحجاز •

وتوضح الوثائق البريطانية أن محمد على كانت لديه النية لفتح الشام قبل أن يقدم على ذلك الفتح بوقت كبير • فقد صرح سنة ١٨١٢ للقنصل الانجليزى فى مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة • بيد أنه لم يقدم لأسباب اظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على الأساليب الحديثة ونجدته السلطان فى حرب الجزيرة العربية •

بما لاشك فيه أن محمد على كان يعد العدة لاقامة حكم قوى يكون مركزه مصر ويمتد منها الى البلدان العربية المجاورة •

اثبت الجنرال بيويه Boyer رئيس البعثة العسكرية الفرنسية فى مصر فى رسالة الى الجنرال بيار فى الثامن عشر من يوليو ١٨٢٥ ذلك بقوله :

انهيت اليك فى كتاب سابق مما يتعلق بانتصارات ابراهيم باشا فى اليونان وأود أن اطلعك الآن على حديث سرى دار بيني

ويبين محمد على حدثني خلاله عن أمانيه قال محمد على : أنا أعرف أن السلطنة تسير يوما فيوما الى الردى ، وانه على أن انشلها مما هي فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أتى ساقيم على أنقاضها مملكة بحيرة ولدى كل الوسائل التى تساعدنى على الفور ، انى أستطيع أن أفتح عكا ، ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى وجيوشى ، وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لانها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى انشائها وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز .

ولم يكن امتناع الجزائر عن ارجاع الفلاحين المصريين الذين هاجروا الى عكا قرارا من دفع الضرائب وهروبا من خدمة الجيش الا احدى الذرائع التى تدرع بها لمشن حملة الى الشام .

ولمنا فى مجال دراسة الأسباب الحديثة التى يجهد المؤرخون انفسهم فى البحث عن الذرائع التى تدرع بها محمد على لحملة الشام ، ولا فى دراسة التفاصيل الخاصة بتلك الحملة .

انتهت الجولة الاولى فى بلاد الشام باتفاق كوتاهية ١٨٣٣ الذى تم فى فبراير من ذلك العام والذى اعترف به السلطان لمحمد على بالولاية على مصر والحجاز وكريت وجعل ابراهيم باشا واليا على سوريا وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية اطنة .

لكن السلطان لم يكد يوقع صلح كوتاهية حتى أخذ يستعد لجولته الثانية مع محمد على بعد عقد معاهدة (انكاير سكله سى) فى ٨ يوليو من نفس العام الذى وقع فيه الصلح (١٨٣٣) ، والتى كانت عبارة عن تحالف دفاعى بين تركيا وروسيا لمدة ثمانية اعوام

وكانت الجولة الثانية وفيها انتصرت الجيوش المصرية انتصارا حاسما واقتريت من الاستانة وسلم الأسطول العثماني نفسه لمحمد على ورسست سفنه فى مياه الاسكندرية ولم تحصل أخبار الهزيمة للمسلطان لأنه توفى قبلها وجاء من بعده ابنه السلطان عبدالمجيد •

ثم تطورت الأحداث على أثر هذا النصر الجديد للقوات المصرية وقام بالدور الرئيسى فيها بريطانيا التى لم توافق على وجود دولة قوية فى طريقها الى الهند ، كذلك كان اهتمامها قد بدا الى جانب طريق برزخ السويس بالطريق البرى الآخر الذى يصل اقليم الافنديين والخليج العربى بساحل سوريا وكان الكابتن شسنى قد بدا تجاريه فى تسيير السفن فى نهر دجلة والفرات ولم تكن بريطانيا - وهى ترغب فى بقاء الدولة العثمانية كمعد منبع امام التوسع الروسى ترضى ان تتلقى هذه الدولة العثمانية تلك الهزيمة من محمد على وما يمثله انتصاره من خطر يهدد مواصلاتها ويتعارض مع مصالحها الاقتصادية خاصة وان الدولة العثمانية آنذاك قد أصبحت سوقا عاما للمصادرات الانجليزية • ولاحظ القنصل الانجليزى فى دمشق ان دولته ستفقد هذه المزايا فى حالة قيام محمد على - بعد ان يسيطر على الامبراطورية العثمانية بتطبيق نظامه لاحتمار التجارة الخارجية وبرنامجها الخاصة بالتصنيع •

وتزعمت انجلترا الوقوف فى وجه محمد على وخاصة حين تولى وزارة خارجيتها اللورد بالمستون وكانت نتيجة مساعى انجلترا على نحو ما هو معروف معاهدة لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ او وفاق لندن بين انجلترا وروسيا والنمسا وروسيا وتركيا وكان هذا الوفاق اول وثائق التسوية التى وضعت للمسألة المصرية •

لقد أحدث الحكم المصري لبلاد الشام تغييرات جوهرية واصلاحات مهدت السبل كي تصبح هذه للبلاد الأرض التى تشهد بداية الحركة العربية فى عصرها الحديث ورغم قصر العهد المصرى بالنسبة للعهد العثمانى فقد ارسيت فيه قواعد جديدة لم تكن معروفة من قبل اذ انتهى ابراهيم عهد الحكم المصطفى وبدأت الدولة تطبق نفس سياستها فى مصر بالتدخل فى شئون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة • فانشئت المدارس لنفس الغرض الذى انشئت فى مصر وهو تغذية الجيش بالعناصر الصالحة كذلك اصبح التعليم باللغة العربية وهو نفس الشيء الذى اصر عليه محمد على فى مصر • وصار الطلبة يقيمون فى هذه المعاهد حيث يقدم لهم الى جانب السكن - الملابس - المأكل علاوة على التعليم المجانى ثم تدفع لهم الدولة رواتب بالاضافة الى كل ذلك ويرتدى الطلبة ازياء موحدة ويتدربون على الفنون العسكرية وخاصة فى مدرستى دمشق وحلب حيث بلغ عدد طلبة الاولى ٦٠٠ طالب والثانية ٤٠٠ •

ومن المعروف ان من أهم أدوات القومية هى المدارس العامة والجيش الوطنى الذى يلتحق به المجندون من ابناء البلاد على اختلاف منازلهم وطوائفهم فضلا عن الصحافة المتداولة والكتاب المنشور والغاء الطوائف وصهر ابناء الأمة فى بوتقة واحدة •

لم يعد التجنيد وجباية الأموال أمورا شكلية يمكن التهرب منها ببعض المقاومة أو بشيء من الرشوة •

وسيطرت الدولة بشكل فعال على التجارة لاسيما التجارة الخارجية تدخلت فى تنظيم الزراعة فاهتم ابراهيم بالفلاحين وعمل على ما فيه خيرهم فاعلمهم من ظلم الحكام ونهب البدو اوعدائهم

فصاروا سعداء لعدم تعرضهم للجور الذى كانوا فيه من قبل ، وكذلك
رغب ابراهيم باشا البدو فى ممارسة الزراعة وتعمير القرى
المهجورة وارغم بعض القبائل الرحالة على الاقامة فى سهل انطاكية
لزراعته على حسابه الخاص وبذا تحول آلاف من البدو الى زراع .

كذلك اعتنى ابراهيم بانشاء بنك زراعى واقام صرافا فى كل من
حلب واطنة ودمشق ومعه خمسمائة آلاف جنيه لتسليف المال اللازم
للزراع المحتاجين كما اعطى سلفيات من المال للفلاحين الذين قطنوا
القرى المهجورة لاصلاح بيوتهم وتموينها واعفاءهم من الضرائب
ثلاث سنين وقدم فى ١٨٣٦ للفلاحين المساعدات الآتية : ٤٠٠ر ٣٢٠
قرشا ٤٤٧ شنبلا من القمح (الشنبل ٥٠ رطلا) و ٢٠٧ شنبلا من
الشعير .

وأسدل الكثير من الخضر الجديدة وبخاصة البطاطس كما زاد
محصول القطن وصار الحرير وتربية دود القز لاستخراجه منه
موضع عنايته الخاصة . صار الحرير المحصول الرئيسى للشام
وعماد ثروتها ينتج بالأخص فى مناطق صيدا وببيروت وجبل لبنان
ودمشق وطرابلس اللاذقية وانطاكية تلك الاقاليم التى توجد لها
مزارع واسعة من اشجار التوت والتى زادت كثيرا اثناء الحكم
المصرى .

واذا كان الاهتمام بالصناعة دون الاهتمام بالزراعة فانه مع
ذلك استمرت المنسوجات الحريرية الانتاج الرئيسى للمصانع . وفى
سنة ١٨٣٦ استهلك نحو ١٢٠٠ قنطار من الحرير الناتج من الشام
فى مصانع حلب ودمشق وطرابلس وحماه وببيروت ودير القمر
وصيدا ، كذلك انشئ فى صور مصنع نسيج الصوف وعمل ابراهيم
على ادخال طريقة اكثر اتقانا لاستخراج زيت الزيتون فى طرابلس
وما جاورها فخلت معاصر الزيوت من فرنسا واستخدم عمالا
أوربيين فى العمل . كما بذل الحكم المصرى جهودا جبارة فى

الكشف عن المعادن • ففي لبنان اكتشف بعض الانجليز نوعا جيدا من الفحم الجيرى وفي الشمال اختبر بعض النمساويين الأرض وظنوا وجود الرصاص والنحاس والفضة والذهب بها •

هكذا وقد أدت العناية الخاصة بالزراعة الى نشاط التجارة فزادت التجارة زيادة مستمرة ، كما تأثرت التجارة الداخلية تأثرا عظيما من زيادة الانتاج الزراعى وتقدم التجارة الخارجية فصارت دمشق مركزا عظيما للتجارة مع بغداد والبصرة والفرس والبلاد المجاورة ، كما زادت تجارة حلب زيادة كبيرة وأصبحت مصر الأولى فى تجارتها مع الشام وقد امتازت سياسة ابراهيم باشا التجارية فى الشام بزيادة الانتاج الزراعى من حرير وزيت زيتون وقطن وقمح وشعير وبإلغاء ما كان موجودا من قبل من عوائق التجارة من احتكارات ومظالم وجمارك داخلية وتنظيم توزيع الضرائب ، وقد عمل ابراهيم باشا على تحسين طرق المواصلات فأنشأ ٣٠ مركبا للملاحة فى نهر الأورنت حتى انطاكية وكانت حرية التجارة من قواعد السياسة المالية فى الشام وذلك لأن الروح التجارية عند الشاميين وكره الأوربيين للاحتكار واعتناق ابراهيم لمبادئ الحرية كل ذلك كان مضادا لإنشاء الاحتكارات فى الشام • غير أن تلك القاعدة قد كسرت عندما أنشأ ابراهيم - بناء على أوامر والده - احتكار الحرير للحصول على الكمية اللازمة منه لاستعمال البلاد ومع ذلك فقد منح حرية تصدير الباقي بعد ذلك الى الخارج •

ومضت ثمان سنوات للادارة المصرية فى بلاد الشام يقول المؤرخون عنها (ابتسم فيها وجه الضعيف لأنه شعر بالانصاف) « ورضيت الطوائف المختلفة عن هذه الاصلاحات لاسيما المسيحيين منهم ، فقد ألغى ابراهيم القيود المفروضة على أزيائهم المميزة ، وأباح للأقرنج دخول دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات

فيها ، ورقع اعلام تحمل شارة الصليب ، كذلك اعتمد على كثير من المسيحيين امثال بطرس كرامة وحنا البحري وعهد اليهم بادخال تنظيمات افرنجية وترتيب مجالس ملكية وعسكرية ومدنية حديثة ،

وساوى ابراهيم باشا بين جميع افراد الشعب فى بلاد الشام لا فرق فى ذلك بين مسيحي او مسلم او يهودى ولم تكن هذه المساواة موجودة من قبل .

ومن اهم ما ادخله ابراهيم باشا من اصلاحات انه الى جانب العمل على توطيد سلطة الحكم المركزى والقضاء على سلطة الامراء والمشايخ والاقطاعيين الاخذ بمبدأ الشورى فى حكم البلاد ، قائل فى كل مدينة يزيد عدد سكانها عن عشرين ألفا تسعة مجلسا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ - ٢١ عضوا ينتخبون من بين نهباء (اعيان) البلاد وتجارها .

ومما لاريب فيه ان هدف هذه المجالس كان خدمة الحكومة المركزية وتيسير مهمتها ومعاونتها فى تحصيل الاموال المطلوبة (الميرى) لكنها كانت بلا شك مقدمة على طريقة تعويد الأهالى اسلوب الحكم الشورى .

فصل ابراهيم بين منصب قائد الحملة ومنصب مدير لادارة بلاد الشام ورشح لهذا المنصب الأمير اللبناني الكبير بشير الثانى، وعندما اعتذر الأمير عن قبول هذا المنصب الجديد طلب القائد (ابراهيم باشا) من والده تعيين محمد شريف (بك) فلبى شريف الدعوة واتخذ لنفسه لقب حاكم دار الآلايات الشامية او كتحداى خديو اعظم وحكمدار آيات عربستان . ومما كتبه الحكمдар فى هذا الموضوع الى اعيان حلب مثلا قوله : لا اخفاكم ما فاضت به بحور احسانات سعادة افندينا ولى النعم الخديو الأعظم عزيز مصر

المعظم دام مادام العالم وذلك بتفويض احكام آليات الاقطار الشامية
لعهدة عجزنا ٠٠٠٠ الخ ٠٠٠ ٠

وما ان اتخذت هذه الخطوة الأساسية حتى تفرع عنها خطوات
أخرى فقسمت البلاد الى مديريات أربع وامارة ممتازة وأشرف
الحكماء بنفسه على مديرية دمشق وقوى أعمال مديرية حلب أحد
أبناء محمد على اسماعيل عاصم بك وقام بأعمال الادارة في مديرتي
طرابلس وصيدا كل من يوسف بك شريف والشيخ حسين عبدالهادي
وبولده بعده ٠ أما لبنان فإنه بقي في عهده الأمير بشير ٠

وكان على رأس كل مدينة أو قرية كبيرة من هذه المديريات
وقراها متسلم يعينه الحكماء بموجب أمر رسمي صادر منه ويتعاون
ومجلس الشورى في حل المشاكل الادارية اما صلاحية هذا المجالس
فإنها لم تكن فيما يظهر دائما واضحة محددة فبينما نرى مجلس
حلب يتصرف بكلية تقريبا للمحافظة على مصالح الحكومة المادية
بنجاح بأمر من محمد على الى ابنه ابراهيم لانشاء مجلس شورى
في قونية « للنظر في أمر تلك البلاد ومصالحها ولاصدار البيانات
اللازمة لتشويق الأهالي وحضهم على الطاعة » ونرى في الوقت
نفسه مجلس بيروت بنظر في بعض الدعاوى الحقوقية التجارية التي
لا علاقة لها بمصالح الحكومة ٠

ولما كانت حاجة الحكم شديدة الى المال لضبط كل شيء والعمل
في سبيل تحديث البلاد فقد أنشأ محمد على في الشام ادارة خاصة
للمال وعين على رأسها برتبة مدير حنا بحرى بك ثم أرقق كل متسلم
في البلاد بموظف مالي خاص أطلق عليه لقب الصراف وحاول
بحرى بك أن يجمع ما أمكنه من المال وان يعرض مشروعا لاصلاح
الخلل في الناحية المالية يلخص بما يلي :

- ١ - تحديد المبالغ المطلوبة من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها بوضوح فى دفاتر معينة وطبع غيرها للمحاسبة •
- ٢ - مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء اصحاب القوة والاقدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون •
- ٣ - اعداد دفاتر خاصة يوضع على رأس كل صحيفة من صحافها ورقمها المتسلسل وتختم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التى تستعمل فيها •
- ٤ - الاهتمام بضبط المكاييل والموازين وابطال ما كان مختلا منها •
- ٥ - جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة فى اوقات غير معلومة وفحص حساباتهم ثم أسس فى مصر قلم خاص عرف « بمصالح بر الشام » وكتب محمد على الى حكامدار الشام يقول له :

لما كان لبر الشام ككل قطر من الاقطار مصطلحات وقواعد قد يستشكل امرها ويستبهم فهمها على رجال هذا القلم فالجذاب العالى يطلب الى شريف بك أن يختار رجلا ذا فطنة ودراية مطلعاً على قواعد بر الشام فيرسله عاجلاً الى مصر ليستقيم فى القلم المذكور فيستعان بعرفانه عما يلزم حيناً فحيناً ثم يعود فيقول له : « انه عاد يفكر فى كثرة آيالات الشام فاستبعد وجود رجل واحد تيسر له معرفة اصول كافة الآيالات ولذا فانه يرى ان يتحدث فى بر الشام قلم صغير خاص بمصالح المقاطعات والالتزامات يتولى بحث

الأوراق العديدة وتدقيقها هناك ثم يبعث بخلاصة بحثه
ونتيجة تدقيقه الى مصر •

يقضل الجناح العالى هذا على ارسال الدفاتر والأوراق
المتنوعة الى مصر ويستطلع رأى شريف باشا الأمر •

وعهد محمد على بعد موافقة ابراهيم الى سسليمان باشا
الفرنساوى بمراقبة شئون الأجانب فى بر الشام • فحاول ضبط
هويتهم وامر بتطبيق قوانين التجول المتبعة فى البلدان الأوربية •
ففرض على الأجنبى وجوب اتصاله بقنصله للتأشير على جواز سفره
لدى وصوله الى بر الشام وجوب مثوله أمام السلطات المحلية
للحصول على شهادة هوية يبرزها عند الطلب • وكان ابراهيم باشا
قد عهد الى اسماعيل عاصم بك مدير آيالة حلب بمراقبة الحدود
التركية وتنظيم شبكة للجاسوسية للغرض نفسه •

عنى ابراهيم بتنظيم وتحسين المواصلات ولاسيما تنظيم البريد
العسكرى وقسمه الى قسمين بريد عادى وبريد مستعجل فكانت
رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر فى ستة أيام • ثم اراد
ابراهيم أن يخدم الجمهور فأمر باعداد مشروع خاص لإنشاء بريد
عام ينقل رسائل جمهور الناس •

أحلت الحكومة فى الشام النظام محل الفوضى والارتباك •
قال ابراهيم عن حكمه لرعش وأوراقه •• اننى فى خلال المدة التى
وليت فيها القيام بخدمة الجناح العالى الخديوى لم اتمسب فى اذنية
أى انسان ولم اعمد الى ايقاع الضرر ، أو مال أى فرد من الناس •
وهذا أمر يعرفه جميع أولى الابصار كما يعرفه جميع أهالى البلدان
التي حثيها وأهالى البلدة التى أقيم فيها الآن • وكنت اعامل

الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا أحيد عنها فى علاقتى معهم قيد شعرة فقد اقتفوا هم أيضا أثرى ولم ينحرفوا عن هذه القوانين . اننى وان كنت لم آت بعد أورفة فأننى منذ عشرة أشهر أقيم فى مرعش ولقد أعلن وجوه الأهالى فى مرعش المرة بعد المرة انهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . أعلنوا هذا فى أسواق البلدة وفى جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا فى العهد السابق يستولون على ما فى ينادرنا من غلال وينهبون أثمان بساتيننا وهب الله سلطاننا العمر وعسائه لا يحرمانا من وزيرنا هذا العادل أى العزيز نفسه ذلك اننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون مثلا من حيث التجنى عليهم واتهامهم بدون حق لغرض ما . والأهالى الآن يؤمنون بالويركو على نحو ما هو مسجل فى سجلات المحاكم لا أكثر ولا أقل اننى أدفع اثمان جميع حاجياتى اليهم الا ايجار المنزل الذى أقيم فيه وثمان الماء الذى اشتريه وأنا متكفل أمر امتعانة العساكر وحسن سيرهم » .

وكتب حكمدار الشام الى المسؤولين فى مصر يفيدهم أنه أعلن لمن يعنيه الأمر من موظفى الحكومة فى بر الشام استعداد ديوان المدارس لببيع بعض الكتب التى كانت تطبع فى بولاق وأنه يقدم لنا القوائم التى وردت عليه من الشام وطلب وطرابلس واللاذقية وغزه ويافا . اما الكتب المطلوبة فهى قانون الصناعة وعقرب الساعة وكتاب الحكمة وعلم الحساب وتاريخ أمريكا وكتاب المعادن والتشريح البشرى وقلائد المفاخر وعقد الجمان وشرح المثنوى وكتيلة ودمنة وتاريخ قدماء الفلاسفة وتاريخ الاسكندر وتاريخ المصريين والجغرافية الطبيعية . . وغيرها من كتب الطب والمنطق وتاريخ الأديان .

ونرى هنا بحرى بك ينوه بأهمية تاريخ بن خلدون ويذكر المساعى التى بذلها محمد على لاستنساخه عن نسخ المغرب ونقله

الى التركية ثم يرجو التفضل بارسال ما ترجم منه كي يمرن اولاده عليه ويعلمهم اصوله . هذا الى جانب الاهتمام بالصحة العامة وانشاء المستشفيات .

ومن اهم مآثر الحكم المصرى فى بلاد الشام الاستعانة بابناء البلاد فامتنع ابراهيم عن اغراق الشام بالموظفين المصريين ولم يستقنم من مصر الا من استوجبت الضرورة قدومه ومن ذلك ان محمد على امر محمد شريف بك لدى تسلمه ازمة الحكم فى الشام بوجوب اسناد منصب المتسلمية فى دمشق الى أحد اعيان هذه البلدة الى مصرى كفى اذا تعذر وجود كفى لها من الدمشقيين انفسهم . وقال ايضا فى كتاب ارسله الى سليمان باشا انه عين حراس الصحة فى المراكب المسافرة الى بر الشام من ابناء مصر لانه لم يجد من هو اهل لذلك فى بر الشام .

وعين ابراهيم باشا على بيروت أحد ابنائها محافظا عليها وابقاه فى هذا المنصب ثمان سنوات (١٨٣٣ - ١٨٤٠) ذلك هو الأمير محمود نامى الذى ارسله الى فرنسا مع بعض ضباط بحريته لاتمام تعليمهم فيها وتلقى محمود علومه العالية وتخصص فى الرياضيات ، ولما رجع من فرنسا عين محافظا على بيروت ، وقد نقل محمود نامى الى بيروت كثيرا من اساليب الحياة الغربية وخطت بيروت خطوطها الأولى فى سبيل رقيها الحديث فأوجد فى بيروت مجلسا للشورى وديوانا للصحة وآخر للتجارة .

واعترف السوريون والمعاصرون منهم بوجه خاص بفضل الحكم المصرى فى بلاد الشام ، يقول الدكتور خليل مشاققة فى كتابه مشهد العيان فى حوادث سوريا ولبنان (لم يمض على حصار عكا زمنا حتى ارسل محمد على تقويضا الى حنا البحرى فى شن

النظامات لحكومة سوريا على النمط الحديث ، وكان حنا البحرى على جانب عظيم من اصالة الرأى، وله القدر المعلى فى السياسة المدنية وكان العدل والانصاف شأنه والنزاهة زمامه لا فرق عنده بين القوى الثرى والضعيف الفقير أو المسلم والذمى ، وكان يعاملهم بالمقسط والعدل حسب وصية محمد على باشا الذى كان عارفا انه لا قيام للدولة الا بالعدل والانصاف .

وكان تعيين ابراهيم باشا لبعض السوريين فى المناصب الكبيرة دليل على حد اعتراف الكثير من المؤرخين الأوربيين برغبته فى اسناد كبار المناصب الى أبناء البلاد وهو ما لم يكن مألوفاً فى عهد الإدارة التركية .

كتب المؤرخ الفرنسى لويس بلان فى كتابه (تاريخ عشرين سنوات) اذا أردنا أن نعرف ما أفادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين ، فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست بأشجار الزيتون وضواحي بيروت التى كثرت فيها الكروم ، والى نشاط الذى انبعث فى حلب ودمشق . صحيح ان محمد على أظهر قسوة فى حكم سوريا ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العارض الذى كان ضرورة ولزماً حيث سادت الفوضى فى تلك البلاد ، نالت سوريا النظام والعمران .

واكد بعض المؤرخين والرحالة الذين زاروا سوريا فى عهد الحكم المصرى انه اذا بقيت أعمال محمد على وبقي الأمن الذى بسطه فيما فتحه من البلاد ، فان حالة البلاد ستتطور تطوراً كبيراً ، واعترف السوريون انفسهم والأدباء والمؤرخون منهم بذلك . كتب سليمان أبو عز الدين أحد أدباء سوريا فى كتابه ابراهيم باشا فى سوريا : لابراهيم باشا فضل خاص فى السنين الأولى من الفتح

فى ضبط الأحكام وشدة مراقبة الحكام وإجراء العدل بين الأهلىن ، وكان شدد الوطاة على المستخدمين الذىن يحيدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرا منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة وغير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة ، فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم للكت قلوب السوريين •

كانت تعليمات محمد على شدة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلا من أحكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر ، ومثال ذلك أن تشاكى كبار الموظفين انتشار الرشوة فى دوائهم فى الشام فأمر بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشنق عند ثبوت الجرم ، قال إبراهيم فى كتاب له الى أحد معاونى محمد على « ستعلمون عندما تقرأون أوراق نعيم نوفل كاتب الخزينة فى طرابلس أن أهل عربستان مبالون جدا الى اعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدى ذلك الى اكتشاف خيانة بعض المتسلمين ومحاسبتهم وعزلهم • وقد تحملنا فى سبيل انقاذهم من بلية الرشوة كثيرا من العناء ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا فى السلب والنهب خوض المتقدمين على الاغارة •

وأبقى اتفاق كوتاهية تعيين قضاة الشرع فى الشام بيد السلطان فخشى محمد على عدول هؤلاء عنه وانحيازهم الى جانب السلطان وأثر ذلك فى أحكامهم فأوصى بمراقبتهم مراقبة خفية شديدة وأمر بوجوب عرض أحكامهم على كبار رجال الادارة قبل تنفيذها ثم لمس عجزهم عن النظر فى بعض الدعاوى الحقوقية التجارية فسمح لمجالس المشورة أن تبت فيها حرة طليقة • فرضى عن موقف اللواء سليم بك من شيخ المغاربة فى اللانقية عندما افتى هذا الأخير بأسر أولاد النصيرين ونسائهم لكن اللواء المصرى قاومه وهدد بانزال العقاب بمن يفعل ذلك • وقل الأمر نفسه عن موقف محمد على من

علماء دمشق عندما اعترضوا على نظام الحجر الصحي (الكارنتينا) قالوا : ان حبس الناس فى البيوت واقامة خفراء ماجورين عليهم واخراج بعضهم على هيئة مرعبة واحراق بعض اشياهم ودفن الموتى بملابسهم وتكليسهم والكشف عن عورة الأموات كل ذلك دليل على خوف الموت والعجز عن تمرين القلوب عن الصبر وفيه ما فيه مخالفة الشرع اذ ان الحبس واخراج الناس فى هيئة مخيفة انما يجوز فيمن يكون مجرما ولا جناح على الذى ظهر الطاعون فى بيته ولا يستحق الاجرة الا من قام بعمل نافع للأمن . ولا ينبغي ان يضايق المحبوس فى عيشه .

عندما قال علامه دمشق ذلك استقدم محمد على من اقلتي بما يلى :

« دلت اخبار السلف وآثارهم على ان الأجواء تختلف وان بعضها قد تكون ضارة وان الانتقال من محل ثبت فساد جوه الى محل آخر واشتتام الروائح الطيبة واستعمال البخور لازالة الروائح الكريهة والعصد والحجامة والاستقاء لما وردت بها السنة المحمدية ولا تنكر اذا نفذت بطريقة لا تخل باحدى الفرائض فاذا امر ولى الامر باجرائها بشروط هى ان لا يضيع حق الطعون ولا الذى ظهر الطاعون فى بيته وان لا تكون معيشة احد عرضة للضيق وان لا يحتفل بالميت مطعونا بدون الاحتفال بالمائت ميتة عادية ونفذت بطريقة لا تخل بالشعائر الدينية فان اطاعة اوامره فى اتيان المباحات واجبه فكيف بالحجر الصحى وهو بين الوجوب والاستحباب » .

وهكذا لم تكن عملية التحديث فى الشام شأنها شأن مصر عملية سهلة او ميسرة بل كانت هناك العقبات الكثيرة التى تصدى لها الحكم المصرى فى حزم وصرامة .

ورأى ابراهيم أنه لتوطيد الأمن في الشام من انه لا بد من جمع السلاح وتجريد السكان عنه فامر بذلك وشرع في التنفيذ وما ان بدأ عمله فيه حتى ثارت القبائل والعشائر . ومما زاد الطين بلة ان عملاء الاستانة استغلوا الموقف وحرضوا السكان على الصمود في وجه الحكومة المصرية فاشتد ساعد السكان وأعلنوا العصيان . فجرد ابراهيم على كل من عصى حمله اكرمه فيها على الاذعان والطاعة وتكبد في سبيل تأمين الأمن خسائر فادحة فمن حارب في فلسطين الى حملة تأنيبية على النصيريين الى مواقع دامية في وادي التيم وجبل الدروز الى محاربة الأكراد في أقصى الشمال الى فتنة مستعصية في لبنان أدت في أواخر الأمر الى تدخل الدول الأجنبية واقصاء المصريين عن البلاد .

وفي ظل الحكم المصري احس سكان الشام بالعدل الذي لم يشهدوه من قبل . قال محمد على في رسالة وجهها الى أحد رجاله : كنت أود أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والغفلة والرخاوة والغرض والضيقة والمحاباة التي طالما ألغناها ومللناها في الأيام الخالية وان يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على اساس الانصاف والانسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضا أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسن يندخلنا في مصاف البشرية الراقية .

ومما لا شك ان حكم ابراهيم في بلاد الشام كان مصلحا وعادلا اذا قيس بالحكم العثماني بل وكان متقدما ومعتبرا من وجوه عديدة وقد اجمع القناصل في تقاريرهم والمراقبون على امتداح مزاياه واصلاحاته الزراعية والعمرانية وتوطيده للأمن وارس قواعد دولة حديثة منظمة يتعامل الفرد فيها مع الدولة فقد لمس ابراهيم

الظلم الذى لحق بالفلاح والمزارع من جراء تلزيم الضرائب فكتب الى السلطات فى مصر يلح بوجوب الغاء التلزيم وبجباية الضرائب مباشرة بواسطة موظفى الادارة قال : انى لم أقصد من طرح هذه الضرائب على الأهالى جلب وفر لجانب الميرى فقط بل انى رأيت فى ذلك نفعا وسهولة يعودان على الجانبين معا . فقد تيقنت ما يلقيه الأهالى من الظلم والجور والأذى والخسارة من المتلزمين حين يأتون الى القرى التى التزموا عشرين وعشرين فيها فمأكول المتلزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يعرفون عليهم فى اثناء السفر جميع هذا على حساب الأهالى وليس بإمكان هؤلاء أن ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يأمر المتلزم بذلك . فقد تبقى هذه الغلال على بيادها حتى موسم الخريف وتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر . ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فأنه سيكون نادرا كما اننا لا نحجم عندئذ عن اجراء التحقيق اللازم . ولقد سأل شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمائوس لدى مروره فيها اننا سمعنا ان ضرائب العشر ستطرح على الأهالى بالمقطوعة فعل لنا ماذا تم ، »

ومن أهم ما يذكر للحكم المصرى فى بلاد الشام حماية مصالح التجار الوطنيين حيث منحوا نفس الامتيازات التى منحت للتجار الأجانب . فتذكر الوثائق ان محمد على وافق على السماح لتابع قنصل انجلترا فى رودس باستخراج الاسفنج من مياه الشام ولكنه رأى أن يمنع عن ذلك اذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطنى . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التى يتمتع بها الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافىء بر الشام . وجاء فى رسالة من المعية السنوية الى ابراهيم باشا انه لا يمكن ائتمان الأجانب المتجنب على مصالح البلاد وانه نظرا لتصلب

اسكواره بك فى رأيه واستثثاره يشنون مدرسة المدفعية تقرر تشكيل لجنة من خريجي مدارس أوروبا من أبناء البلاد للنظر فى تنظيم المدارس » •

والح ابراهيم من بدء حكمه فى الشام بوجوب ارسال عشرين أو ثلاثين صبيا من بر الشام الى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرايش ولاسخال هذا الفن الى بلاده فتتحول اذ ذاك أرباح الأجانب من هذه البضاعة الى أبناء البلاد • ووافق بعد مدة وجيزة على انشاء معمل لصنع العباءات فى عكا تدار دواليبه بواسطة المياه واصدار الأمر لارسال الدواليب والمدقات اللازمة من مصر •

وليس معنى ذلك ان الحكم المصرى كان خيرا كله وانه لم تكن له ما يؤخذ عليه لكن الأمر الذى نريد التأكيد عليه هو ان هذا الحكم لعب دورا رئيسيا وهاما فى تحديث بلاد الشام وان وجود هذا الحكم برغم قصر عهده قد مهد السبيل لنهضة علمية أدبية • فقد فتحت سياسة التسامح الدينى التى اتبعها ابراهيم باشا فى حكمه لبلاد الشام الباب أمام بعثات التبشير الغربية وخاصة البعثات البروتستانتية الأمريكية والكاثوليكية الفرنسية • ومما لاشك فيه ان جهود هؤلاء المبشرين فى فتح المدارس فى بلاد الشام كانت أحد ولا نقول كل الأسباب الهامة التى جعلت بلاد الشام تشهد قبل غيرها حركة اليقظة العربية فى العصر الحديث •

وحين انتهى الحكم المصرى لبلاد الشام وعادت من جديد للخضوع للحكم العثمانى لم يكن من الممكن أن يستطيع هذا الحكم بكل أساليبه البالية ان يملأ الفراغ الذى تركه الحكم المصرى • وبعد وفاة السلطان محمود الثانى بعد موقعة نزيب (٢٤ يونيو ١٨٣٩) التى انتصرت فيها قوات محمد على انتصارا باهرا وكانت

وفاته قبل ان تصله انباء تلك الكارثة ، تولى رشيد وأنصاره مسؤولية اصلاح الدولة التى كانت كل فروع ادارتها عرضه للفوضى الشاملة التى عزاها الجيش الذى ضعفت انتصارات قوات محمد على معنوياته الى اصلاح محمود . وكانت انتفاضات شعبية قد جرت فى كثير من الولايات على حين رحل أسطول الدولة الى الاسكندرية وانضمت فرقة عسكرية كاملة الى ابراهيم باشا فى الاناضول . كان رشيد يرى أن بقاء الدولة العثمانية يستلزم اعادة الوحدة التى كانت مصدر قوة الامبراطورية فى ايامها الاولى وان ذلك لن يتم الا بتطوير المبادئ التى تهتدى بها الحكومة وجعلها شبيهة بالنمط الأوربى الدستورى . واستطاع أن يستغل الأزمة التى سببتها هزيمة القوات العثمانية فى نزيب فى الحصول على المساندة الرسمية لبرنامج الإصلاح خاصة وان الدولة كانت بحاجة الى هذه المساندة ضد محمد على فمن شأن اعلان برنامج اصلاحى أن يوضح للدول الأوربية العظمى أن بإمكان الدولة العثمانية أن تحرز التقدم وانها تستحق الانتقال - وهكذا أجرى رشيد مفاوضات مع المرستون وغيره ليس فقط لحسم الأزمة الشرقية لصالح الدولة بل للحصول على المساعدة الخارجية للإصلاحات التى كان على وشك القيام بها . وقد استطاع رشيد أن يقنع السلطان الجديد ان بإمكان الدول العظمى أن تحسم الأزمة لصالح الامبراطورية العثمانية وهكذا جاء اعلان ٣ نوفمبر ١٨٣٩ فى قصر طوب قى المعروف باسم جولخانه (قصر الزهور) الذى يعتبره بعض المؤرخين بمثابة العهد الأعظم بالنسبة الى العثمانيين .

وهكذا يمكن القول أن حروب الشام وما نتج عنها لعبت دورا هاما فى صدور حركة التنظيمات فى الدولة العثمانية .

وكان من اثر حركة التنظيمات انتشار موجة المدارس العثمانية فى العراق وفى بلاد الشام . وفى الأخيرة كان نشاط الجمعيات أو

الماجناكارنا التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية قويا فى مجال الثقافة والتعليم .

ومع ان منشور التنظيمات أعلن مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، الا ان الحكومة لم تستطع ان تطبق المبدأ تطبيقا مطلقا ، فظلت الخدمة العسكرية قاصرة على المسلمين وحدهم بينما دفع المسيحيون الجزية ، كما ظلت الوظائف بصفة عامة ولاسيما الوظائف الادارية والقضائية محصورة فى يد المسلمين ، وهكذا اتت للتنظيمات الى زعزعة نظام المال دون ان تسمح لها فى كيان المجتمع لندماجا تاما ، فاصبحت هذه المؤسسات الدينية مجالا خصبا للنشاط الأوربي الثقافى والدينى والسياسى . وكان لذلك أسوأ الأثر فى الولايات العربية لاسيما بلاد الشام حيث تكثر الأقليات المسيحية ، فبينما كان المسلمون يتجهون الى السلطنة ، ظلت هذه الأقليات تتجه الى الدول الأوربية لحمايتها وتأييد وضعها الشبه مستقل وبمعنى آخر انتهت التنظيمات الى تعميق الهوة بين المسلمين والمسيحيين فى الولايات العربية حتى ان المؤرخ الفرنسى ثومين *Thoumin* فى كتابه تاريخ بلاد الشام يرى ان مذابح لبنان ١٨٦٠ ترجع فى أسبابها غير المباشرة الى التنظيمات العثمانية .

ويرجع بعض المؤرخين بعض أسباب أحداث فتنة ١٨٦٠ الى سياسة حكومة إبراهيم باشا المصلحة فى سوريا حيث أوجدت قلقلة بين الفلاحين وجعلتهم أكثر احساسا بحقوقهم المقتضية من أصحاب الأراضى وهو الأمر الذى تسبب أحداث عدد من الفتن السابقة فتنة الستين . ثم كانت تلك الفتنة الكبرى التى انتهت بوضع حاص للبنان والتى تقاطر بعدها التبشير على هذه المتصرفية الممتازة من متصرفيات الدولة العثمانية . وتبع ذلك فتح العديد من المدارس والكليات على نحو ما هو معروف .

الفصل الثاني

الشوام في مصر

إذا كانت مصر على طول امتداد تاريخها قد رحبت بالقادمين إليها من شتى الأقطار العربية والإسلامية فإن أكثرية القادمين إليها في عصورها الحديثة كانوا من الشام .

كان رواق الشام في العصر العثماني هو أكبر الأروقة في الأزهر ازدحاما بالطلبة . ويلاحظ أن دولتي المماليك البحرية والشرابية كانتا تحكمان مصر والشام فكانت الحدود بينهما مفتوحة على مصراعيها ، ثم جاءت الدولة العثمانية وفتحت الشام ثم مصر ودخل إقليم الحجاز تحت سيادتها ثم فتحت اليمن والعراق ومدت نفوذها إلى معظم أقاليم شبه الجزيرة العربية ، ومنطقة الخليج العربي ، وجميع أقاليم شمال إفريقيا ماعدا مراكش (بلاد المغرب) ولم تكن هناك حدود عازلة بين مصر حيث يوجد الأزهر وشعوب الأمة العربية . فكان في استطاعة العربي أن يعبر من المشرق العربي أو المغرب العربي إلى مصر ويمارس فيها ألوانا من النشاط الثقافي أو الاقتصادي دون أن تقام في وجهه العقبات أو العراقيل .

والحقيقة أنه إذا كان للحكم العثماني من حسنات فإن أهم ما ينبغي أن يذكر في هذا الشأن أنه بفتحته للأقاليم العربية وبسط سلطانه عليها قد حافظ على خصائص ومقومات الوحدة بين تلك الولايات .

وكان من الطبيعي يحكم رابطة الجوار والموقع أن يكون أبناء الشام هو أكثر الوافدين الى مصر والذين لم يكونوا يعدون اجانب بل عدوا رعايا للدولة العثمانية مثلهم في ذلك مثل المصريين تماما ، وقدر للشوام أن يلعبوا دورا هاما في التجارة سواء الداخلية منها والخارجية فقام بعضهم بدور الموردين للسلع واشتغل آخرون بتجارة الأقمشة المحلية والحريية والقطنية والمجوهرات فضلا عن السلع الشامية ، بل وأصبح لبعض هؤلاء التجار وكلاء في موانئ البحر الأحمر الشهيرة مثل جده ومخا وغيرها كما وصل بعضهم الى منصب شيخ الطائفة التي يشتغل بها .

وبرز دور الشوام على عهد الحملة الفرنسية على مصر حيث كان منهم من اشتغل بأعمال الترجمة لتلك الحملة فاستعان بونابرت بعدد منهم مثل الياس فخر ، ابراهيم صباغ ، انطون زاخورة ، الياس حناثيا فرعون ، تقولا الترك ، بالإضافة الى انطون رفائيل زاخور الذي كان العضو الشرقي الوحيد في مجمع نابليون والذي اختاره ليكون مترجما للمجمع حيث قام بجهود كبيرة في هذا المجال وترجم كثيرا من الوثائق التي جمعها علماء الحملة وصنفوا منها كتابهم الشهير وصف مصر الى جانب ترجمته للكثير من المراسيم والقوانين والقرارات التي اصدرها بونابرت .

واستعان محمد علي بالشوام في مصر في بناء دولته الحديثة فاعمل نقولا مصابكي في بعثة علمية الى ايطاليا (ميلانو) ١٨١٥

لتعلم فن سبك الحروب وصنعها وقام الشوام بدور الترجمة بين الطلاب المصريين والعلماء والمدرسين الأجانب الذين أتى بهم من فرنسا وإيطاليا نظرا لانتقان الكثير منهم للغتين الفرنسية والإيطالية . وقام هؤلاء بدور بارز في ترجمة العديد من الكتب العلمية والعسكرية والإدارية من لغاتها الأوروبية إلى العربية .

كما سمح لهم محمد على بالالتحاق بالمدارس التي أنشأها مثل مدرسة الطب وغيرها وذاع صيت بعض هؤلاء المتخرجين حتى بعد عودتهم إلى بلادهم وانضم كثير منهم إلى الجيش المصري حتى قبل فتح محمد على لبلاد الشام . كما أن محمد على عندما تطلع إلى انخزال دودة القز للانتفاع بحريرها ، سعى فجلب أناسا من الشام وجبل لبنان بصفة خاصة لخبرتهم الواسعة في هذا المجال ووطنهم في وادي الطميلات وبنى لهم مساكن هناك . والمعروف أن محمد على عين عددا من الشوام في المناصب الإدارية الهامة واقطعهم الأراضي الزراعية ، الأمر الذي أدى إلى زيادة عددهم وانتشارهم في أرجاء مصر فقدرهم البعض بما يتراوح ما بين ثلاثة آلاف شامى بالقاهرة وما بين خمسمائة وستمائة بدمياط ومائتين وثلثمائة بالاسكندرية وذلك خلال العقدين الأولين للقرن التاسع عشر وإن كان البعض قد قدر عددهم بخمسة آلاف شامى حتى منتصف العشرينات من نفس القرن . وتذكر هذه التقديرات للمسيحيين منهم فحسب ، أما المسلمون الشوام الذين اندمجوا في المجتمع المصري وذابوا فيه فلم تشملهم بتلك الإحصائيات .

لكنه مع وقوع أحداث فتنة سنة ١٨٦٠ الشهيرة بدأت أعداد هجرة الشوام تزداد وكانت قبلتهم الأولى بالطبع هي مصر التي جاءوها بأعداد وفيرة .

ويرى بعض المؤرخين أنه لا يمكن إرجاع هجرة الشاميين وتزايد أعدادهم إلى مصر إلى العوامل السياسية وحدها فما لا شك فيه أن العوامل الاقتصادية لعبت دورها في هذه الناحية خاصة بعد انتشار التعليم في بلاد الشام وسمي الشام لتحسين أحوالهم الاقتصادية والبحث عن حياة أفضل من بلادهم ومهارتهم التجارية التي تحثهم على السعي والارتحال ، كل ذلك كان دافعا لهم للمجيء إلى مصر ليمارسوا فيها نشاطهم التجاري خاصة بعد ما راوا ما وصل إليه من سبقوهم إلى الهجرة من نجاح اقتصادي كبير . وشجعهم على المجيء تلك النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكذلك التعليمية التي شهدها مصر على عهد الخديو --- غير وتطلع الكثيرون منهم للاستخدام في الوظائف الحكومية المصرية . ثم لا ننسى طبيعة الشاميين الذين حسبوا منذ قدم العصور على حب المعامرة والترحال بحثا عن أسس لنجد ونشراء .

ومن المعروف أنه كان من الأسباب المباشرة لازدهار الصحافة في عصر اسماعيل هجرة عدد كبير من المثقفين والكتاب والفنانين إلى مصر نتيجة للمذابح الدينية التي عمت بلاد الشام في الستينات من القرن الماضي . وقد تبنى الخديو اسماعيل هؤلاء اللاجئين كجزء من سياسته العامة في مناوأة الباب العالي والتعبير عن استقلال لارادة المصرية فأنشئت جريدة الأهرام سنة ١٨٧٥ وأدى نشوب الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٧ إلى انقسام الرأي العام المصري بشأنها إلى فريق يؤيد الباب العالي صاحب السيادة الشرعية على البلاد وفريق يجاهر بالعداء . وترك الخديو اسماعيل الصحافة المعادية لتركيا تعبر عن توقعها بحرية تامة بوحي من سياسته الاستقلالية فساعد ذلك على استقطاب الفكر المصري حول ما صار يعرف بمصر للمصريين بل بلغ تعريض بعض الصحف

المصرية بفساد النظام العثماني ان الاهرام نددت صراحة باستبداد سلطان تركيا ودعت الى الاصلاح فكتبت في ٢٢ مارس ١٨٧٧ تقول لقد شكركنا من الاستبداد الموصل للدمار فنتيه لنا الآن ان نقصيه بعيدا . والخطاب السلطاني قال قد اشتهرت وثيقة الاصلاحات اوجدت البرلمان مؤكدا للجميع العدالة والحرية ، وفي عدد ١٢ ابريل ١٨٧٨ كتبت تقول « قل لنا متى النهاية تحملنا مالا يطاق صبرنا على البلوى فحتما ننتظر » .

ومع مجيء جمال الدين الافغانى الى مصر تحلق حوله عدد من مثقفي الشام فحصل سنة ١٨٧٧ لاديب اسحاق على امتياز اصدار جريدة مصر وغذاها بمقالاته والتي تحدث فيها الافغانى لأول مرة عن مصر الفتاة . واوحى الافغانى الى يعقوب صنوع باصدار جريدة اخرى في الاسكندرية باسم التجارة فاصدرها سنة ١٨٧٩ وسامد سليم عنخوري على اصدار جريدة مرآة الشرق سنة ١٨٧٩ .

وما ينبغي تاكيده وتوضيحه ان هذه الأرض المصرية كانت التربة الصالحة التي استطاع فيها عدد كبير من الشوام ان يحقق نجاحا كبيرا في مجالات الحياة المختلفة وهذا هو سر تعلق هؤلاء الشوام بالبلاد التي احتضنتهم وقدمت لهم كل سبل النجاح والثروة والشهرة والتي لم تتحقق لهم في بلادهم . ومن الصعب حصر كل اوجه نشاط هؤلاء الشوام انما نريد ان نقول ان مصر وان لم يقدر لها ان تلعب الدور الاول في الحركة العربية في العصر الحديث فانها بما تم فيها من تحديث وبناء الدولة المصرية الحديثة على عهد محمد على ثم دورها بعد ذلك في تحديث بلاد الشام على نحو ما اوضحنا ثم باحتضانها للزعامات الفكرية من ابناء الشام والذين قدر لبعضهم ان يلعب ادوارا رئيسية في الحركة العربية - ان مصر بما فعلته من ذلك كله قد ادت ادوارا هامة في تاريخ تلك الحركة .

وتعاطف دور الشوام في مصر وكان من الطبيعي أن يكون هناك من يحقد على هذا الدور وتلك المكانة التي بلغها بعضهم ووصفهم بعض المصريين بالغرياء والدخلاء .

وعندما جاء الاحتلال البريطاني لمصر كان من ناول الأعمال التي قام بها تعطيل جرائد الثورة العربية والقبض على محرريها ففي ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ أصدر رياض باشا ناظر الداخلية أمرا بالغاء جريدتي الزمان والسفير والقبض على حسن الشمس صاحب المفيد والسفير والنجاح الأمر الذي دعاه بعد الاقراج عنه الى هجر الصحافة والاشتغال بالمحاماه كذلك اختفت صحف عبد الله نديم واختفى صاحبها بعد صدور الأمر بالقبض عليه . كذلك نفى محمد عبده ولم يسمح له بالعودة الى مصر الا بشرط عدم الاشتغال بالصحافة . وهناك في باريس أصدر مع استاذاه الافغانى صحيفة العروة الوثقى . فبعد فشل الثورة العربية لم يبق من صحف المقاومة الا مجلستان تصدران في باريس هما مجلات أبو نظارة ومحررها يعقوب صنوع ومجلة العروة الوثقى . وظل يعقوب صنوع يتفنن في تهريب مجلته الى مصر آتيا بدسها داخل الجرائد والمجلات الأوربية التي ترد الى مصر وآتيا بتغيير اسمائها لتضليل السلطات المصرية حتى بلغ عدد هذه الاسماء عشرا منذ نفيه في ١٨٧٨ . وكتب يعقوب صنوع يصف مغامراته في مذكراته سيرة ذاتية غير المنشورة (تاريخ أبو نظارة) والتي نقلها الدكتور ابراهيم عبده من المخطوط الذي تحتفظ به ابنته في باريس قال « كنت غالبا ما أضع صحفى في مجلات مصورة وكراسات موسيقى ووضعت في الجرائد التي نشرت صورة الخديو عام ١٨٧٩ ألف نسخة من صحيفتي . ولم اكتف بأرسالها للمشتريين العديدين ولكن بعثت بها أيضا الى جميع أصدقائي ومعارفي . وقد تلقى الخديو

نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفتي فيها • وكان غضبه لهذه الجراءة شديدا • • ودأب يعقوب صنوع على تهريب مجلته الى مصر بطريقة مشابهة بعد عزل اسماعيل وتولى توفيق فى أوائل عهد الاحتلال حتى سنة ١٨٨٤ •

اما العروة الوثقى التى صدرت أولى أعدادها فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ فقد حددت فى العدد الأول منها رسالتها « ان الرزايا الأخيرة التى حلت باهم مواقع الشرق (أى احتلال انجلترا لمصر) جذبت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاقتصاد بين ساكنيها ، فايقظت افكار العقلاء ، وحولت انظارهم لما سيكون من عاقبة أسرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين ان يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين ان تجد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف • • واختاروا ان يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربى ، وان تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية ، تنبيهها للغافل ، وتنكيرها للذاهل فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسينى الافغانى ان ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده ان يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول على الاجباه حمل الثانى على الامتثال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال ، •

ولكن مجلس الوزراء المصرى قرر فى ٢١ يوليو ١٨٨٤ منع دخول العروة الوثقى الى مصر وكانت تهرب بنفس طريقة ابو نظارة،

وتوسط بلنت مع محمد عبده أن يزورا إنجلترا للتعلم حول موضوع العروة الوثقى ، وفى لندن قابل محمد عبد كثيرا من رجال السياسة وسأله وزير الحربية الانجليزى الا يرضى المصريون أن يكونوا فى مأمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانجليزية ، فأجابه محمد عبده كلا ان المصريين قوم عرب ومنهم من محبى الأوطان مثل ما فى الشعب الانجليزى فلا يخطر فى بال أحد منهم الى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين ، ولما لم تسفر المحادثات عن شيء تم الاتفاق بين الحكومة الانجليزية والفرنسية رأسا على منع ارسالها الى مصر من المنبع أى من مصلحة البريد الفرنسية . ومن ثم توقفت العروة الوثقى بعد العدد الثامن عشر الصادر فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ .

وافترق الزعيمان محمد عبده والافغانى الأول يرى هجر السياسة ويلعن كلمة السياسة ومشتقاتها ويؤمن بالتربية سبيلا الى الاصلاح والثانى يمضى فى احترام السياسة ويقول لمحمد عبده انما أنت مثبط . عاد محمد عبده الى بيروت وكان يقيم فيها قبل استدعاء الشيخ جمال الدين له للاشتراك معه فى اصدار العروة الوثقى .

يقول عباس العقاد فى ترجمته لمحمد عبده ، « اما الشيخ محمد عبده فقد عاد الى بيروت وهو يزداك ايمانا بعقم المحاولات السياسية ، وضعف الأول فى الملوك والأمراء ، ووجوب التعويل بعد هذه المحاولات العقيمة على الأمم دون غيرها ، وحصر الأمل كله فى اعداد هذه الأمم للنهضة والمقاومة بعدة العلم الصحيح والتربية الاجتماعية الصالحة » ، وظل محمد عبده على هذا الرأى يزداك ايمانا به يوما بعد يوم ، ويضيف اليه من تجاربه مع الأمراء والرؤساء كل يوم ما يعززه تعزيزا لا سبيل الى الشك عنده وقد كان

يقول لتلاميذه الفقهاء والأدباء من أمثال رشيد رضا وحافظ إبراهيم ان السياسة ضيعت علينا أضعاف ما أفادتنا ، « وان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه وجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس ان نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ، ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ، فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك اوطانهم والسير في الأرض لننشر الاصلاح المطلوب ، فينتشر احسن الانتشار فقال انما انت مثبط » .

اقام محمد عبده في بيروت وكان ذلك على عهد السلطان عبد الحميد الثانى وما اشتهر به عهده من التجسس وخنق الحريات فانصرف محمد عبده طوال اقامته فيها للعمل علما ومعلما يؤلف ويلقى الدروس في شرح البلاغة ومقامات بديع الزمان ، وأخذ يدرس تفسير القرآن في مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التي اتبعها من بعد في مصر لا يتقيد بكتاب في التفسير خاص ، وانما يقرأ الآية من القرآن ويفسرها من عنده بما يختار من التفسير وبما يجتهد ويستطرد في شرح احوال المسلمين ونفدهم حسبما تلهمه الآية .

ومما لاشك فيه ان اقامة الشيخ محمد عبده في بيروت كان لها اثارها الكبير في مجال الحركة العربية بما خلف وراءه فيها من مربين وتلاميذ من بلاد الشام . وحين دعى للتدريس في المدرسة السلطانية اصلح برامجها ودرس فيها التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الاسلامى والفقه على مذهب ابن حنيفة ، واتحد بيته للحديث العلمى والأدبى . وهكذا شهدت بيروت على عهد الامام محمد عبده حركة علمية كبيرة كما أسهم في الصحافة بدلوه فكان

يكتب في جريدة (ثمرات الفنون) مقالات تشسبه تلك التي كان يحررها في الوقائع مثل مقاله في الدعوة الى النقد والحث عليه وانه (النقد) اداة لتحصيص الآراء ومعرفة وجه الحق في الأفكار .

وكان رشيد رضا من مريدي محمد عبده الذين سمعوا لى لقائه وهو في بيروت وكان اذ ذاك يطلب العلم في طرابلس الشام . وكان محمد عبده قد سافر الى طرابلس من بيروت لزيارة احد اساتذة المدرسة الخاتونية وسجل رشيد رضا اثر هذه الزيارة ثم سعى للانتقام به مرة ثانية بعد مجيء محمد عبده من مصر بعد ان عفا الانجليز عنه لزيارة بلاد الشام . جاء محمد عبده سنة ١٨٩٤ الى تلك البلاد مصطحبا وكان يصحبه احمد فتحي زغور رئيس راب الاسكندرية اذ ذاك . وحرص رشيد رضا ان يشترك في الاجتماع التي دارت بين الامام محمد عبده وابناء الشام .

ولم يتردد رشيد رضا في الرحيل الى مصر ليكون على مقربة من استاذ الامام ولأنه سمع عن مواضع له من الشام سبقوه الى هذا الميدان من أرض مصر .

كانت مصر ملتقى هاما لدعاة التحرر وزعماء الفكر الحر الذين ضاقت بهم بلادهم على عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) فلقد رأوا ان الاستبداد الذي فرضه هذا السلطان قد افسد صفاء النفوس وضيع اخلاقتها فأصبح النفاق والتملق من سمات هذا النفوس . لقد سد هذا السلطان على الناس انفسهم وخلق لرائتهم ليستعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعفاء . فزلت نفوسهم وركبها التزلف والتقرب . واذا وصلت الى يد من هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت الموازين شذاف البرى وأمن المسيء وتقم الهازل وتأخر المجد وراجت الشعوذة . وصار

المرء لا يأمن على عرضه وماله ودمه لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدري متى يسلب ماله ويهتك عرضه • وإذا خافت النفوس صغرت وأصبحت تمثل الدعة والهدوء وتتفر من الطموح والسمو وفي كل ذلك انهيار الأمة •

من أجل ذلك كانت باريس والقاهرة الملتقين الهامين للرجال الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد الثانى والذين بدأوا العمل خارج الأرض التى يمكن أن تمتد اليهم يد السلطان بالبطش والجور وأخذوا يعملون على إسقاط صرح الظلم والاستبداد الذى فرضه السلطان على دولته والتى كانت بلاد العربية خاصة فى مشرقها - كما سبق أن أوضحنا - تمثل أحد اجزائها الرئيسية •

والمعروف أن السلطان عبدالحميد جاء الى الحكم سنة ١٨٧٦ بعد خلع أخيه السلطان مراد الخامس وكان الأخير قد تولى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز لكنه نظرا لما اتضح من مرض مراد الخامس وتأثير ذلك على تصرفاته أقدمت الجماعة المستنيرة التى تزعمت حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية على خلعه وكان يقزعها مدحت باشا واشترطت مدحت على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط كى يجيء به الى الحكم أولا أن يصدر دستورا دون تأخير ثانيا أنه كسلطان يتصرف فى مسائل الدولة بناء على استشارة الوزراء المسئولين ثالثا أن يعيد تعيين الرجال الأحرار الذين عزلهم مراد مثل فايق كمال وغيرهم • ووافق عبد الحميد على كل ما اشترط عليه مدحت ومن هنا يعرف هذا العهد بالمشروطية الأولى • وصدر فرمان رسمى بالدستور فى ديسمبر من نفس العام •

لكن عبد الحميد سرعان ما نكص على عقبيه فنفى مدحت وأجل اجتماع مجلس المبعوثان (النواب) فى فبراير من العام

التالى ١٨٧٨ بحجة دخول تركيا الحرب مع روسيا وعادت الدولة الى نظام استبدادى فريد فى نوعه وانتشر التجسس وتقنن الجواسيس فى عملهم وكثر عددهم وكانوا يعرفون باسم الخفية لأنهم يتجسسون على الناس خفية . وكانت تقارير هؤلاء الجواسيس كافية لاعتقال الكثير من الأشخاص والزج بهم فى السجون ليشهدوا اشد انواع التعذيب وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفى خارج البلاد . واهتم السلطان بتكميم الصحافة وجعل كل كلمة تقال أو تنشر أو تكتب تعرض على الرقيب الدائم وكان يتحتم على كل مؤلف أو كاتب أن يرسل مسودات كتابه أو مقاله الى لجنة تسمى لجنة تدقيق المؤلفات ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه وكثيرا ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ان لم تناهز السنة الكاملة . وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالاة شديدة وأنهم كانوا يحسبون حسابا لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات وكثيرا ما عطلت صحف وصودرت كتب فى هذه الفترة . وفسد جهاز الدولة فلم تعد الاستعانة أو الكفاءة سبيلا الى الترقى بل أصبح التملق والتفاق هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم . وساءت حالة الدولة المالية فازدادت نفقات السلطات وزادت مصروفاته على شبكة الجاسوسية . كل هذا مع زيادة مرافقى السلطان ورجال حاشيته .

وهكذا بدأت التنظيمات السرية تعمل ضد السلطان . تكونت جمعية سرية ثورية فى القسطنطينية من طلبة المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٨٨٩ والتي اتخذت لنفسها هدفا هو العمل على عزل السلطان عبد الحميد وبدأت الحركات السرية تنتشر من مدرسة عسكرية الى أخرى . كذلك نشط الأحرار فى المهجر وخاصة فى باريس حيث فر اليها عدد من الأحرار العرب فى مقدمتهم خليل غانم

وهو مسيحي عرّبي من بيروت كان نائباً في مجلس المبعوثان عن
أحدى مناطق سوريا . فلما عطل السلطان عبد الحميد الدستور
فر الى أوروبا في باريس حيث أسس جريدة تركيا الفتاة
La Jeune Turquie بالاتفاق مع الأمير أمين أرسلان .

ولم يكتف خليل بذلك بل أخذ يكتب في مختلف الصحف
الفرنسية خاصة جريدة الديبا Deba كتب فيها مقالات يهاجم
حكم السلطان عبد الحميد واستبداده علاوة على توليه إدارة جريدة
فرانس إنترناشيونال France International ومن العرب الذين
لجأوا الى باريس كذلك أحمد رضا الذي كان يعتبر من أكبر أعلام
حركة المقاومة ضد السلطان .

وفي الوقت الذي كانت فيه باريس تمثل مركز هاماً من مراكز
تجمع الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد ، كانت
مصر ملتقى الأحرار العرب خاصة الأشقاء السوريين الذين أبوا ان
يستكينوا للضيم أو ان يهادنوا الظلم والاستبداد . و لكن من الطبيعي
ان تكون مصر هي المهجر القريب الذي تطلعت اليه قلوب الشاميين
فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأحرار ان يفروا من ريقة
الاستبداد العثماني الى مكان آمن . ولم يكن هناك خير من وادي
النيل المكفولة فيه حرية القلم آنذاك .

ولقى النازحون من الشام الى مصر في الربع الأخير من القرن
التاسع عشر أهلاً بأهل وأخواناً بأخوان فشاركوا اخوانهم في مصر
الحياة العامة وعاشوا أوفياء لمصر يحسسون باحساسها وتخالج
قلوبهم آلامها وآمالها ويعملون منها لاسقاط الحكم العثماني
المستبد .

وكانت مصر في ذلك الوقت خاضعة للاحتلال البريطاني •
والاحتلال يشجع كل حركة مقاومة للدولة العثمانية وتلقى منه
ترحيبا وحاكم مصر الشاب آنذاك الخديو عباس حلمي الثاني ليس
على وفاق مع السلطان • تولى عباس الحكم بعد وفاة والده الخديو
توفيق في السابع من يناير ١٨٩٢ واثارت مشكلة بسبب تعيينه ، ذلك
انه كان ولد في ١٨٧٤ وعندما توفي والده لم يكن قد بلغ الثامنة
عشرة من عمره ومعنى ذلك انه لا يحق له تولى منصب الخديوية ،
ولكن حلت المشكلة بالحساب الهجري • وشهدت مصر في هذه الفترة
صراعا بين الانجليز يريدون ان تزداد قبضتهم على مصر وبين
السلطان عبد الحميد يريد ان يثبت سلطاته عليها كولاية تابعة له •
وأقر السلطان عبد الحميد صدور فرمان الخاص بتعيين عباس
حلمي خديويا للبلاد ، فقد كان يريد تعديل حدود مصر من جهة
سيناء فطالب بان تتخلى مصر عن العقبة لتركيا على ساس انها
كانت تابعة من قبل لولاية الحجاز واعارثها تركيا لمصر على عهد
اسماعيل • وقبل عباس حلمي ما طلبته تركيا حتى يحل مشكلة
اصدار فرمانه ، لكن انجلترا رفضت ذلك واصرت على صدور
فرمان تعيينه على ان يتضمن فرمان اسناد ادارة شبه جزيرة
سيناء الى الخديو طبقا لحدود مصر في فرمانها الصادر لمحمد على
سنة ١٨٤٠ وقبلت تركيا وحلت الأزمة •

في ذلك الحين فترت العلاقة بين الخديو الجديد وسلطان الدولة
العثمانية ولقى الأحرار العرب الذين جاءوا الى مصر كل ترحيب
منه وتأييد •

وراودت الخديو عباس أحلام وآمال عريضة كشباب يرتقى
عرش مصر يحاول أن يؤكد سلطانه كخديو للبلاد فهو يريد أن يؤكد
انفصال مصر عن تركيا بل راودته فكرة ان تؤول أمور الخلافة

للمسلمين له بدلا من السلطان العثماني . ومن أجل هذا أصبحت مصر مجالا لنشاط الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد .

جاء الى مصر ابراهيم اليازجي (بن ناصيف اليازجي) وكان ابراهيم هذا هو أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية في الشام فهو صاحب القصيدة التي وصفها البعض بانها مارسيلية العرب (اشبه بنشيد الثورة الفرنسية) والتي قال فيها :

تنبهوا واسـتفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
اقداركم في عيون الترك نازلة
وحققكم بين أيدي الترك مقتصب
صبرا هيا أمة الترك التي ظلمت
دهرا فعمّا قليل ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف ماريـنا
قلن يخيب لنا في جنبه أرب

ولم يكن من المنتظر أن تطيب الإقامة لابراهيم اليازجي في بلاد الشام بعد هذه الصيحة المدوية ، فبادر بالهجرة الى مصر حيث أسهم في ميدان الصحافة بنصيب وافر وتوفى على أرضها سنة ١٩٠٦ .

واقترن ابراهيم اليازجي بشخصية سورية أخرى هو رفيق المعظم الذي أبى الاستكانة لظلم العثمانيين في وطنه الشام فانضم

الى الجمعيات السرية المناوئة لهم . ثم ضاقت نفسه بالجواسيس
يحيطون به من كل جانب فهاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ .

كانت مصر في ذلك الحين تموج فيها نهضة أدبية وثابة بفضل
اعلام النهضة الأدبية في ذلك الحين وفي مقسمتهم بطبيعة الحال
الشيخ محمد عبده الذي عاد من منفاه سنة ١٨٨٨ وهو يحاول قدر
استطاعته متابعة الاصلاح قاصراً جهوده على الميدان الاجتماعي
والثقافي تاركا الميدان السياسي .

يقول العقاد عنه لو أننا القينا على لسانه كلاما يقوله في
مداية التعليم كالذي قاله في ضلال السياسة لخلناه قائما قاعدا
يقول : « بارك الله في العلم والتعليم وفي علم وتعلم ، وفي عالم
ويعلم ، معلوم وفي كل حرف من حروف العين واللام والميم ا » ومن
ابرز ما قام به الامام في هذه الفترة تصديده للأزهر ومحاولة اصلاح
حالة بعد ان عين عضوا بمجلس ادارته سنة ١٨٩٤ ثم تعززت
مكانته الرسمية بتعيينه بمنصب الافتاء بعد ذلك بمخمس سنوات .

وجاء من بلاد الشام أحد مريدي محمد عبده وهو رشيد رضا
الذي يعتبر أحد رواد الحركة العربية بلا منازع . تكتم رشيد خبر
سفره حتى لا يتسرب الى اذان جواسيس السلطان عبد الحميد
ومعاونيه أبي الهدى الصيادي . وهنا يبحث عن الشخصيات الأمانة
التي يمكنه الاطمئنان اليها ويحصل على مساعدتها في السفر الى
مصر واستطاع مدير جوازات بيروت (ناظر النفوس) الشيخ
صالح الرافعي ان يساعد في هذه الناحية اذ اخذ منه جواز سفر
دون ان يعلم بذلك أحد وقبل ان يحين ميعاد الباخرة التي دبر رشيد
رضا خطة سفره عليها ذهب لمقابلة اثنين من أعز اصدقائه ليخبرهما
بما عزم عليه وأولهما عبد القادر القبانى وهو صاحب جريدة ثمرات
القنون وكان صديق الامام محمد عبده منذ كان متفيا في بيروت .

ودارت بين رشيد رضا وعبد القادر القبانى مناقشة كشفت عن الآمال العراض التى جاست بنفس هذا المصلح الشاب • اذ حين علم الأستاذ / عبد القادر القبانى من رشيد رضا برغبته فى السفر الى مصر وان هدفه من ذلك انشاء صحيفة اصلاحية هناك عرض عليه ان يقيم فى بيروت ويتولى رئاسة التحرير لجريدته • فقال له رشيد ان الحرية التى فى بيروت لا تسعنى • فقال القبانى اتريد ان تنتقد السلطان عبد الحميد ؟ وتخوض فى سياسته قال رشيد انما اريد اصلاح الاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم قال : ان لك اوسع الحرية فى هذا قال رشيد اذا ردت ان اكتب فى فضيلة الصديق ومضار الكذب ومفاسده ، فأبين ان اكبر اسباب فشو الكذب فى الأمم الحكم الاستبدادى ، انتشر لى ذلك جريدتكم وعندئذ قال له الأستاذ القبانى لا لا عجل بالذهاب الى مصر ولا تخبر احدا •

ثم ذهب رشيد الى الأمير شكيب ارسلان وكان عقيما وقتذاك فى بيروت وأخبره بما عزم عليه باعتباره هو الآخر من مريدى محمد عبده ومن زعماء الإصلاح فى الشام •

ووصف رشيد رضا فى مذكراته ساعة رحيله وامعانه فى التلقى عن عين السلطات العثمانية وساعده فى ذلك ناظر النفوس صالح الرافعى على نحو ما سبق ان اشرنا الى ذلك •

ووصلت الباخرة التى تقل رشيد رضا الى ميناء الاسكندرية يوم ٣ يناير ١٨٩٨ تجول خلالها أياما فى كل من الاسكندرية ووطنطا والمنصورة ودمياط ثم سافر الى القاهرة ليلتقى بأستاذه محمد عبده •

واستشاره فى اصدار جريدة واختار له محمد عبده اسم المنار وصدر العدد الأول منها كصحيفة اسبوعية فى ١٧ مارس ١٨٩٨

وحددت مقدمة هذا العدد الأغراض التي تسعى إليها هذه الجريدة
وهي نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، وإقامة
الحجة على أن الاسلام ، باعتباره نظاما دينيا لا يتنافر مع الظروف
الحاضرة . وأوضحت هذه الافتتاحية أيضا أن غاية رشيد رضا من
إنشاء المنار مواصلة السير على نهج العروة الوثقى وخاصة في
سعيها للقضاء على الخرافات والاعتقادات الداخلية في الاسلام .

وتوضح المقتطفات التالية من مقدمة العدد الأول منهج رشيد
رضا إذ يقول أما بعد فهذا صوت صارخ بلسان عربى مبين ، ونداء
جق يقرع من سمع الناطق بالفساد مسامع جميع الشرقيين ، ينادى
من مكان قريب يسمعه الشرقى والغربى ، ويظير به البخار فتناوله
التركى والفارسى .

يقول أيها الشرقى المستغرق في نومه ، المبتهج بلذيت أحلامه
حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة ، وكاد يكون اغماء
أو موتا زوآما ، تنبه من رقادك وأمسح النوم عن عينيك . لا يهولك
ما تسمع ولا يروعك ما ترى ، واعلم أن هذا العصر عصر العلم
والعمل ، فمن علم وعمل ساد ، ومن جهل كسل باد . وما أريكم
إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

كذلك جاء مصر من الشام يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين
مكارىوس وأسس صروف مجلته الشهرية الثقافية المشهورة المقتطف
في ١٨٨٥ تلك المجلة التي استنفزت بدفاعها المسرف عن الانجليز
سعد زغلول الى أن يصتدر رخصة لمجلة تحمل اسم (العدالة)
ليرد بها على المقتطف ثم عدل عن إصدارها بعد تعيينه قاضيا .
أما مكارىوس فقد أنشأ ١٨٨٦ مجلة اللطائف الأدبية وأنشأ الثلاثة
في ١٨٨٩ جريدة المقطم اليومية السياسية . ولكن فارس نمر كان

هو القوة المحركة لهذه الجريدة ، وكان صـروف ونمر ومكاريوس ثلاثتهم من خريجي الكلية الأمريكية ببـيروت • وقد تزوج فارس نمر فى ١٨٨٨ بـابنة قنصل انجلترا السابق فى الاسكندرية وزار لندن وتعرف على كبار رجال السياسة فيها • ووصف نمر الاحتلال بأنه كان أكبر نعمة وسوف يستمر كذلك لهذا القطر • وكانت سياسة المقطم تقوم على أساس تدعيم سلطة الانجليز فى مصر مع تقويض سلطة الخديو والباب العالى • ولهذا وصفت مجلة الأستاذ فى عدد ٢٣ مايو ١٨٩٢ الثلاثة أنهم التزموا فى جريدتهم اليومية تقييد الأمة ، وتحسين الاعتراف بسلطة الغير والتلويح بما يشف عن سوء مقاصدهم فى الجانب الخديوى • أما الياس زاخورة فدافع عنهم فى كتابه مرآة العصر بقوله عن المقطم : « فقد يهتمها البعض بالمغالاة فى مدح المحتلين والتطرف بالطعن فى الدولة العثمانية ولكنها متى فعلت ذلك فهى تقف فيه عند حد الحقيقة لا تتعداها فى شىء الى ما وراء النزاهة •

وقد وجد الاحتلال البريطانى فى أكثر صحف الشوام أدوات نافعة لتبرير وجوده امام الرأى العام المصرى وبيان ما جلبه الحكم الانجليزى من خيرات ومن ثم توسع الانجليز فى تعيينهم فى الوظائف • فلما اصدر رياض باشا فى سنة ١٨٩٠ قرارا بوقف توظيف الشوام فى المصالح الحكومية بسبب كثرة احتجاج المصريين من حرمانهم من وظائف استأثر بها غيرهم من أبناء الشـام ، تدخل المعتمد البريطانى لاصدار قانون ١٨٩٠ منح السورى الذى عاش فى مصر خمسة عشر عاما حق التوظيف فى الحكومة المصرية • وكتب اللورد كرومر فيما بعد يقول فى كتابه مصر الحديثة طالما كان هناك جندى بريطانى واحد فى شوارع القاهرة فلن يصد نر قرار يفرق بين الناس على أساس الجنسية أو الدين • وكتبت جريدة الاتحاد المصرى فى

عدد أول مايو ١٨٩٠ تقدم له ويلسان المصريين والسوريين واجب الشكر فهو صاحب الفضل الذي لا يعاب بتفاوت المذاهب واختلاف المشارب بل يقابلها بكرامة الطبع واستقلال الضمير . وشهد الله أن السوريين كأخوانهم المصريين لا ينكرون منافع الإصلاح الظاهرة على يديه ولا يملون من توجيه الثناء اليه .

أورد الدكتور سامي عزيز في كتابه الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي أنه في السنوات العشر اللاحقة للاحتلال البريطاني كانت هناك ٥٢ صحيفة ومجلة منها ١٣ سياسية و ٤٠ علمية وأدبية وقانونية وتجارية . . وكان أكثر مؤسسيها ومحرريها من الشوام فالى جانب المقتطف كانت هناك الشفاء لشبلى شميل وهى طبية وأصدر نجيب غرغور مجلة المنارة وهى أدبية والاعلان لحبيب فارس وهى تجارية والزراعة لسيوب عون وهى زراعية .

ويفسر اللورد كرومر سر استعاقته بالشوام لاتقانهم اللغتين العربية والفرنسية الأمر الذى فتح أمامهم باب المناصب الحكومية من أيام الخديو اسماعيل . أما عبد الله النديم فيذكر فى (الأستاذ) عدد ٢٢ مايو ١٨٩٣ أن أصحاب المقطم وقياسا على ذلك بقيمة كتاب الشوام نزلوا مصر بعد أن كسر الاحتلال البريطاني أقلام أرباب السياسة فيما بين منفى ومشرد وسجن وبهذا خلا لهم الجو . . ، وقد طلب كرومر من الخديو نقي عبد الله نديم من البلاد لتهمجه على المقطم فنفى الى استنبول بعد آخر عدد صدر من الأستاذ فى ١٣ يونيو ١٨٩٣ .

كذلك أصدر خليل النيازجى وسليم عنحورى مرآة الشرق وميخائيل عبد السيد والكسان صرافيان جريدة الزمان وميخائيل عزاد صحيفة الحضارة .

وكما استعانت انجلترا ببعض اقلام الشوام استعانت تركيا ببعض منهم مثل سليم باشا حموى صاحب جريدة الفلاح التى صدرت ١٨٨٥ للدعوة للسلطان عبد الحميد واصدر امين بك ناصفه فى ١٨٨٦ وهو لبنانى جريدة الصائغ تحت رعاية العازى مختار باشا (مندوب السلطان لبحث المسألة المصرية) .

كذلك جاء الى مصر الشيخ طاهر الجزائري الذى لعب دورا هاما فى اليقظة العربية فى دمشق . برز دور الشيخ طاهر خلال تولية مدحت باشا حكم دمشق ، فبعد نفى مدحت خارج الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، عفى عنه ومعا يؤثر عنه قوله حين جاء الى سوريا : ان مسليهما قد فشا بينهم الجهل ومدارس الاقربج تتقدم يوما بعد يوم تقدما ملموسا وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن فكنت افكر فى امر تعليم ابناء المسلمين . واصلاح مدارسنا ، وشكل مدحت باشا الجمعيات فى سوريا وجمع الاعانات وفتح المدارس ، كما انشأ مدرسة للصنائع واخرى للفنون وملجأ للأيتام واصلاح المساجد وجعلها مدارس ووضع عقوبة لولى امر الطفل اذا بلغ ائنه السادسة ولم يرسله الى المدرسة واستعان باموال الأوقاف فى أمور التعليم ، وتأسست فى عهده جمعية المقاصد الخيرية لانشاء المدارس ، وتمكنت من افتتاح خمس وثلاثين مدرسة . وارتفع عدد الطلاب الى خمسة آلاف طالب بينما زاد عدد الطالبات الى الفين بحيث ضمت مدارس دمشق طلاب الشام وسدس طالباتها .

وكانت هناك شخصية عربية من وراء مدحت تحثه وتقنعه ان الخطر كل الخطر ان ينهل الشباب الاسلامى من مدارس الارماليات التبشيرية تلك هى شخصية الشيخ طاهر الجزائري . لقد اقنع الشيخ الجزائري مدحت باشا بذلك كما اقنع به بهاء بك رئيس ديوان

الولاية . وأعد الشيخ طاهر مشروعا لإنشاء جمعية المقاصد الخيرية تكون شبه رسمية تعينها الحكومة بالمال وتخصص لها ائبنة وقفية وحكومية وترجه نشاطها لفتح المدارس ، وتكون مطبعة لطبع الكتب . وظل الشيخ طاهر يدافع عن فكرته فى إنشاء هذه الجمعية بعد نقل منحت الى ولاية أزمير على عهد واليها الجديد حمدى باشا ، فاقنع الوالى الجديد بالفكرة ونجحت فى مهمتها .

ثم استطاع الشيخ طاهر أن يحقق أمنية من أعظم أمنائه وهى جمع الكتب الموقوفة على المساجد فى قبة الملك الظاهر بدمشق ، فتألفت من تلك الكتب قوارة المكتبة الظاهرية التى تتبع اليوم المجمع العلمى العربى . وقد جمع الشيخ فيها بضعة آلاف من المخطوطات العربية النقيسة ومنها اليوم غرف للمطالعة وليبحث المخطوطات النادرة .

وفى أواخر سنة ١٨٨٢ أصدر السلطان عبد الحميد ارادة سنية باستبدال جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية بمجلس معارف عين له رئيسا العالم الشريف محمود أفندى حمزة مفتى دمشق وعلاء الدين زافندى أحد علماء دمشق والشيخ طاهر الذى شغل آنذاك منصب مفتش معارف ونائبين للرئيس . وتشكل من رئيس هذا المجلس ونائبيه وخمسة عشر عضوا آخرين مجلس إدارة يدير شئون المعارف فى دمشق . ثم عانت حكومة السلطان عبد الحميد قالفت مفتشية المعارف وعينت الشيخ طاهر مفتشا لدار الكتب .

فى ذلك الحين كان يتخلق حول الشيخ طاهر صفوة المتعلمين فى دمشق فتألفت من جماعهم حلقة أدبية وثقافية كبرى كانت تدعو الى تعليم العلوم العصرية ودراسة تاريخ العرب وضمت هذه الحلقة عددا كبيرا ممن لعب دورا كبيرا فى تاريخ الحركة العربية أمثال عبد الحميد الزهراوى ، رفيق العظم ، محمد كرد على ، فارس

الخورى ، عبد الرحمن شهيندر وسليم الجزائري (بن اخ الشيخ طاهر وولى امره والذى استشهد على يد جمال باشا ابان الحرب العالمية الاولى .

قلنا ان هذه الحلقة كانت تهتم بالدراسات الدينية والأدبية وكان بודהا دراسة العلوم والصنائع المختلفة لكن المتخصصين فى ذلك كانوا قلة .

يقول الأستاذ محمد كرد على ، أدركت مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانونى ولا صيدلى قانونى ولا حقوقى قانونى ممن درسوا هذه الفروع على الأصول وعرفوا صناعتهم معرفة تامة . وليس فيها محاسب لأن الأمة عاشت وتريد أن تعيش بلا حساب ، أما العلوم الرياضية التى كان يدرسها أجدادهم مع علوم القرآن والحديث ، فقد غدت عندهم أسماء بلا مسميات .

وتناولنا فى كتابنا عن محب الدين الخطيب كيف ساعده الشيخ طاهر الجزائري على مواصلة تعليمه بعد وفاة والده .

وفى مخطوط لمحب الدين الخطيب أوضح فى أوله جهود الشيخ طاهر الجزائري فى نهضة الشام حتى اشتبهت فيه حكومة الاستانة فارادت عزله من إشرافه على المعارف فى جميع الديار الشامية . فلما قيل لها ان الرجل لا يعمل الا للصالح العام والشعب مؤمن باخلاصه فاذا عزل كان لذلك وقع سيئ فى الديار الشامية فاحتالت على عزله بالغاء مفتشيات المعارف كلها فى جميع الولايات ليكون عزله كأنه غير مقصود فى الظاهر وبقي سنوات لا مورد له الا من بيع الكتب المخطوطة الموروثة له من والده (وكان والده مفتى المالكية فى دمشق) ومما اقتناه هو من النقائس ولا مستشرق قدرها كما يعرفها هو . وكان عزت العايد فى طفولته رفيق الشيخ طاهر فى

الدراسة فكانا يتناوبان الأولية فيه ، فى وقت تأسيس تشكيلات المعارف فى سوريا تأسست أيضا تشكيلات العدلية (١١ المحاكم المدنية) وكما عين الشيخ طاهر مفتشا للمعارف عين عزت بك العابد مفتشا للعدلية واحتاج الى السفر الى الاستانة لبعض الأمور واتصل بالسلطات العثمانية التى اكتشفت ذكاه فعين فى وظيفة الكاتب الثانى للسلطان عبد الحميد . فلما علم عزت العابد أن رفيق صباه الشيخ طاهر نحى عن مفتشية المعارف وأنه يعيش من بيع كتبه أرسل له صديق لهما يقول له اختر أى وظيفة ترضى أعينك فيها فأرسل له الشيخ طاهر يقول : اذا نفذت كتبى وصمرت أبيع ملابسى لا أقبل وظيفة من طريقك لأنك التحقت بالمابين (السلطات العثمانية) .

وظل الشيخ طاهر بدون وظيفة حتى سعى اثنان من أبناء الأمير عبد القادر الجزائري هما الأمير محمد باشا والأمير محيى الدين باشا فى تعيينه فى وظيفة مفتش دور الكتب فى الديار الشامية كلها وفى خلال ذلك زار القدس وأقنع راجب الخالدى هناك بتأسيس المكتبة الخالدية وطبع فهرستها . فلما اشتدت المضايقة عليه نرح الى مصر . ويقول الخطيب عن حلقة الشيخ طاهر بأنه فلما يسمع الزمان يمثلها فى بلد واحد ولاسيما ان كان ذلك البلد فى مثل حالة النوم كذى كانت عليه دمشق ستغرقه فيه فى السنوات العشر الأخيرة من سلطنة السلطان عبد الحميد . ويوضح مكانة الشيخ طاهر حتى لدى المستشرقين وغيرهم انهم كانوا يعرفون قدرته ومكانته .

أما تأثيره على الخطيب فيوضحه بقوله : ومن نعم الله علي كاتب هذه المخطوط انه عرف الشيخ طاهر من طفولته واتخذة إيا

— بعد موت والدى الشيخ أبى الفتح الخطيب فى المحرم ١٢١٥ هـ ،
فعرفت طريقى بتوجيهه ونظرت الى أهدافى بعينيه وحررت رسالتى
فى الحياة بالنزق والشرف للذين اقتبستهما منه .

واهم ما استفاده الخطيب من الشيخ طاهر أنه فى السنوات
الأولى من دراسته تعلم حسب التثبت من كل شىء ، وعدم التسرع
فى الحكم على أمر الا بعد الاحاطة بحقيقته والوقوف على دخليته .
وكنلك تعلم منه الوفاء لهذه الأمة ومعرفة اقدار عظمائها والنظر
بعين الرضا والحرية لترائهم العلمى وجهادهم القومى وتضحيتهم
لتكوين كيانا الذى يحتاج منا الى بعثه واعادة الحياة اليه .

وكما جاء الشيخ طاهر الجزائرى الى مصر فرارا من استبداد
السلطان عبد الحميد الثانى جاءها كذلك عبد الرحمن الكواكبي
سنة ١٨٩٩ .

وقد تناولنا فى كتابنا عنه قصة تصديه للحكم الحميدى
فاستقال من وظائفه فى حلب وفتح مكتبا للمحاماه حتى ألصقت به
احدى التهم أنه منضم الى عصابة أرمنية وأنه أغرى بعض الناس
برشق قنصل إيطاليا بالحجارة بقصد أحداث فتنة بين الأرمن
والمسلمين فى حلب وانتهى الأمر بأن برأته محكمة بيروت التى حوكم
أمامها وعاد الى حلب بعد العدة لمغادرة بلاد الشام الى مصر .

وكما تكلم كل أمراء الشوام خبر سفرهم الى مصر فعل
الكواكبي ذلك حتى عن اقرب المقربين اليه فزعم أنه متوجه الى
عاصمة الدولة العثمانية لكن الحقيقة أنه كان يعد العدة لرحيله
نهائى الى مصر .

ولم تمض على مبارحة الكواكبي حلب بضعة عشر يوما إلا
وعرف الناس بوجوده فى مصر وأخذت جريدة المؤيد تنشرله كتابه

الذى اسماء طبائع الاستبداد فى مقالات متفرقة بعنوان الرحالة كاف . ويقول كامل الغزى فى ترجمته للكواكبى « وأخذت جريدة المؤيد تنشر له مفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جميعه ام القرى فقد اطلعنا عليه مرارا . ثم انه طبع الكتابين وقام لهما فى المابين السلطانى ضجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية . بيد انه رغما عن ذلك وصلا حلب على صورة خفية وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة .

ثم كان أن توثقت عرى الصداقة بين الكواكبى والخديو عباس حلمى الثانى . ويبدو أن الكواكبى تعرف بالخديو عن طريق رشيد رضا والشيخ على يوسف فالمرحوم رشيد رضا فى سرده لتاريخ حياته يقول : كان الخديو عباس يثق بى وكان يستوقفنى كثيرا مع الشيخ على يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ويتحدث معنا فى بعض الشؤون الحاضرة .

ويتخذ المؤرخون من علاقة الكواكبى بالخديو عباس حلمى الثانى دليلا على أن الذى أوعز للكواكبى رحلته التى طاف فيها البلاد العربية هو الخديو نفسه . وان هذه الرحلة التى تمت بإيعاز الخديو كانت للدعاية له بشأن الخلافة الاسلامية .

وحالت وفاة الكواكبى المفاجئة بعد رحلته الى البلاد العربية دون تدوينه لآخبار هذه الرحلة لأن المنية عاجلته بعدها بثلاثة اشهر وكانت الرحلة على مرحلتين أو على فترتين زار فيها عددا من البلاد العربية والاسلامية زار فى الأولى السودان ووصل الى زنجبار والحبشة وعاد بعدها الى مصر ليستأنف رحلته الثانية . والكواكبى وان لم ينكر تفاصيل رحلته ذكر انه زار مصر ثلاث مرات المرة

الأولى كانت حين جاءها من الشام فارا من وجه السلطان عبدالحميد
وأما زيارته الثانية فكانت حين قطع جزءا من رحلته وعاد إليها
ليستعد لجولته الثانية ثم كانت الزيارة الثالثة حين انتهت رحلته
وعاد الى مصر ليتوفى فيها .

زار الكواكبي فى رحلته الثانية الحجاز وصحراء الجزيرة
واليمن ومنها سار الى الهند ووصل الى ميناء كراتشى حيث عاد
على ظهر سفينة ايطالية بتوجيه من وكيل ايطاليا السائسى فى مسقط
طافت به سواحل العرب وسواحل أفريقيا الشرقية . وعاد الكواكبي
من هذه الرحلة بمعلومات وافرة عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية
حتى أنه استحضر نماذج المعادن من تلك الاصقاع .

وكان الكواكبي يتمنى لو أتاحت له زيارة بلاد المغرب العربى
ولكن المنية حالت دون ذلك .

كذلك جاء الى مصر محب الدين الخطيب وهو فى طريقه من
بيروت الى اليمن التى عين فيها ترجمانا للقتصل البريطانى فى
الحديدة . فرسم الخطيب خطة على أن يقضى بها شهرا (شهر
أكتوبر ١٩٠٧) بعد أن تحدد سفره لاستلام وظيفته فى الشهر
التالى .

رسم محب الدين خطة أن يقضى شهر أكتوبر فى مصر الى
جانب شيخه وأبيه الروحى الشيخ طاهر الجزائرى وصديقه محمد
كرد على ثم ليكون على حد قوله على مقربة من مركز النهضة
الأدبية والعربية (يقصد مصر) وليتصل - على قدر الامكان
بأركانها وأعلامها ويسافر من مصر الى الحديدة فى أول نوفمبر .

ويروى محب الدين فى أوراقه المخطوطة انه قضى الأسابيع
القليلة الباقية على سفره من دمشق الى القاهرة فى أنها من المكن

العام لجمعية النهضة العربية • ولم أجد من أوراق الخطيب ما يوضح ان هذه الجمعية كان لها نشاط سياسى ، فهى من هذه الناحية لا تختلف عن الجمعيات العربية الأخرى التى تشكلت فى فترات سابقة على الزمن من حيث مدارس أداب العرب وقاريخهم •

لكن أهم ما امتازت به جمعية النهضة العربية التى أسسها الخطيب أنها ضمت الشباب العربى الذين نفر من التبشير ومدارسه وأراد أن يعمق جذور القومية العربية على أسس اسلامية وعن أجل هذا كان رائدهم الشيخ طاهر الجزائري •

ولزيارة محب الدين الخطيب للقاهرة أهمية خاصة فى مراحل حياته • ففيها كما يذكر سعد كل السعادة بلقائه بمحمد كرد على الذى أرسل شقيقه لانتظاره فى محطة سكة حديد القاهرة ونزل ضيفا عليه فى منزل كان يسكنه فى أول شارع الشيخ ربحان وما ان سمع الشيخ طاهر بقدومه حتى حضر اليه مرحبا مهنئا تلميذه بسلامة الوصول وذهب معه لزيارة رفيق العظم والتقى أعضاء جمعية النهضة العربية الموجودون فى القاهرة مثلما كانوا يلتقون فى دمشق ودار الحديث عن جمعية النهضة وأهدافها وأمال محب الدين الخطيب فيها • وكان محمد كردعلى قد نشر فى مجلة المقتطف سلسلة فصول بعنوان (عمران دمشق) فعرض محب الدين على كرد على أن يتولى جمعية النهضة جمع هذه الفصول وطبعها فى كتاب •

ومن أهم ما حرص عليه الخطيب اثناء وجوده بالقاهرة قضائه وقتا كبير بدار الكتب المصرية للالتام بما تحويه من كتب ومراجع وذلك فى الوقت الذى كان صديقه كردعلى مشغولا بعمله

فى جريدة المؤيد التى كان يصدرها الشيخ على يوسف وكان يزور القاهرة فى وقت وجود الخطيب بها أحد كبار أعيان مسلمى روسيا اسمه اسماعيل بك عنبرنسكى وقد جاء الى مصر للدعوة الى عقد مؤتمر اسلامى فيها لدراسة احوال المسلمين عموما ومسلمى روسيا على وجه الخصوص .

ويوضح الخطيب استياء رجال الحزب الوطنى فى مصر من ميل هذا الرجل الروسى الى التعاون مع الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وذلك لما كان بين رجال الحزب الوطنى فى مصر والشيخ على يوسف من جفاء كما يذكرانه حصلت مشادة فى بيت رفيق العظم حول اللجنة التى يراد تأليفها لعقد المؤتمر وهو الأمر الذى الذى عرقل الدعوة اليه .

وانقضت الأيام التى حددها محب الدين الخطيب للاقامة فى القاهرة بسرعة الأمر الذى حال بين تمكنه من تلبية دعوة مصطفى صادق الرافعى الأديب المعروف وسنرى عند حديثنا عن التحرك العربى على الأرض المصرية أهمية هذه الزيارة فى انضمام الخطيب الى جمعية الشورى العثمانية .

والمعروف ان الخطيب جاء الى مصر ليقيم فيها بصفة نهائية بعد ذلك عقب انهيار حكومة فيصل فى دمشق وحين جاء الى مصر عرض عليه نجيب الارمنازى أن يحل محله فى تحرير الاهرام ولبث يعمل فيها نحو خمس سنوات الى اواخر سنة ١٩٢٥ وكان فى خلال ذلك قد أسس الى جانب المكتبة السلفه ومطبعتها - مجلة الزهراء وهى مجلة أدبية اجتماعية شهرية استمرت فترة خمس سنوات بدأت فى أغسطس ١٩٢٤ .

ثم أسس صحيفة القتح فى مايو ١٩٢٦ وظلت تصدر حتى نوفمبر ١٩٤٨ وعن طريقها مضى يكمل رسالته فى خدمة أمته العربية حتى وافته المنية ديسمبر ١٩٦٩ م ومنذ مجيئ الخطيب الى مصر لأول مرة أحب ما فيها من نهضة وتمنى أن يتحرك زملاؤه أعضاء جمعية النهضة العربية لشراء مطبعة مثل مطبعة المؤيد واصطناع حروف مثل حروف مطبعة المعارف فى القاهرة وتسمى هذه المطبعة مطبعة النهضة العربية واصدار جريدة بنصف قطع الجرائد العربية ولكن فى ستة أشهر نشر صحيفة نصفها مكون على ورق بسيط كورق المؤيد ويكون للاخبار الوقتية والاعلانات اما النصف الثانى على ورق جيد مثل الهلال ويكون للمقالات والقصائد والأقوال والاخبار الخالدة وان تكون هذه جريدة يومية اسمها النهضة العربية • ورأى أنه من الأفضل أن تصدر فى القاهرة كجريدة سياسية مصورة •

كان الخطيب فى تقريره الذى بعث به من اليمن الى زملائه أعضاء جمعية النهضة العربية حريصا على أن يكشفهم بالحقائق عن الآمال التى يحلم بها لأمة العربية •

يقول الخطيب نريد أمة جديدة فاضلة وتتطلب المنفعة المشتركة وتحب الدأب على العمل والاعتماد على النفس ، مركبة من حكومات متحدة جنديتها ، ماليتها ومعارفها واحدة • تدار كل واحدة منها فى باقى فروع الحكومة حسب ما تقتضيه بلادها وتاريخها • على أن تكون كلها ديمقراطية نعم نريد ذلك غير متعجلين ولا نحن مقيدون بزمان •

ويرى الخطيب أن السبيل لتحقيق ذلك هو انشاء المدارس والاهتمام بالصحافة والطباعة والتمثيل والجمعيات والخطابة

وانشاء الشركات ثم يناقش وضع امته العربية فيقول لزملائه فى
نفس تقريره •

مدارسنا ! تعلمون ماهى مدارسنا نحن ليس لنا مدارس •
ان ما فى بلادنا من هذه المعامل اما الخورى او لشيخ او لسانس
او الادارى وكلهم غيرنا لانهم ياخذوننا الى غير الكعبة التى نحن
ذاهبون اليها • صحافتنا • آه ماذا أقول عن صحافتنا انتم تعلمون
صحافة سوريا • وأقول لكم عن صحافة وادى النيل ان محورها
الأساسى المنفعة الشخصية وكفى لهذه الصفحات القليلة التى اكتبها
كلمة كهذه فى وصف صحافة مصر • احزاب متباينة ومشاغبات
وليس فى اعمدها مع ذلك ما يفيد فائدة تمسك وتلمس بالأيدى •

ويذكر اخوانه بكلمة للشيخ طاهر الجزائري وهى : ان الأمة
لاتزال الآن فى سن الطفولة ودعوتها الى مطالعة النافع يجب ان
تكون بالاحتياج عليها واستعمال الوسائط لنشر ما ينفع منها أو
ما يقال من ان الأمة لا تقرا النوع الفلانى من الكتابات هو حديث
خرافة • اذن فمن الممكن اذا احسنت اشاعة النافع واعلانه ان تقبل
عليه الناس •

ويشير الى ان مستوى الجمعيات والخطابة فى البلاد العربية
هى دون المستوى شأنها شأن الصحافة العربية وادنى منها الشركات
• لأننا لا نرى سكة حديد حتى الآن وما أشبه هذا اجتمع على
انشائها جمع من تجارنا واغنيائنا لكنه لا بأس فيقول ولكن الأمة
لا تخلو على ما يظهر من نبضات بين عروقها • وان المتحرقة
اكبادهم من الشبان ليسوا بالقليلين كما انهم ليسوا ايضا كثيرين
فمن هؤلاء يجب ان نبحت وحال هؤلاء يجب ان يدرس هؤلاء يجب
ان نكاتبهم ونصادقهم •

ويتأسف أنه لم تنجح له اثناء زيارته مصر أن يجتمع بالعديد من أدبائها وبخاصة مصطفى صادق الرافعي الذي بعث له سلاما وتحية مع صديقه محمد كرد علي وإلى جانب الصحيفة اليومية التي اقترحها الخطيب اقترح اصدار مجلة سياسية اجتماعية في أول كل شهر عربي وفي نصفه وتسمى مجلة النهضة كما اقترح اصدار مجلة علمية اجتماعية على رأس كل شهر عربي تكون في عشر ملازم يتولى تحريرها صلاح الدين القاسمي ويشاركه فيها بقية أعضاء الجمعية مثل زكي الخطيب وغيره وتسمى مجلة العلم والاجتماع كما أشار على زملائه بعمل مجلة أدبية تنشر في منتصف كل شهر عربي تكون في عشر ملازم ويتولى تحريرها عارف الشهابي ويعينها عليها صلاح القاسمي وتدعى الأدبيات وتكون مصورة •

ولكن شيئا من ذلك لم يتم لسبب بعد الخطيب عن اخوانه ثم بسبب سفر عدد منهم الى مصر مؤثرا ترك بلاد الشام التي انتشر فيها الاستبداد الحميدي آنذاك •

الفصل الثالث

(م ٦ - مصر والحركة العربية)

التحرك العربي على الأرض المصرية

اتّيححت للاشقاء من ابناء الشام الذين جاءوا الى مصر فرصة الحركة والتصدى لاستبداد المظطان عبد الحميد الثانى ونشير فى هذا المقام الى الدور الرائد الذى قام به عبد الرحمن الكواكبي .

ولكن نعرف اهمية الدور الذى قام به الكواكبي عندما جاء الى مصر ينبغى ان نشير انه وان كان معروفا بين الكتاب والادباء العرب قبل مغادرته بلاد الشام فانه برحيله منها الى مصر واقامته فيها برغم قصر تلك المدة التى لم تتجاوز ثلاث سنوات (فقد جاءها سنة ١٨٩٩ وتوفى على ارضها مساء الخميس الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ الموافق الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ) عمت شهرته آفاق العالم العربى وخاصة بما خلفه من كتابيه الخالدين ام القرى وطبائع الاستبداد . وقد تناولنا ذلك فى كتابنا عنه يقول المرحوم الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتابه ميلاد دولة ليبيا الحديثة المجلد الثانى ان الزعيم الليبى بشير السعداوى ذكر له ان نسخ كتاب طبائع الاستبداد لم يقتصر تصريبها من مصر الى بلاد الشام فحسب بل وجدت كذلك طريقها الى طرابلس الغرب . والمعروف ان

مقالات هذا الكتاب قد نشرت سنة ١٩٠٢ بعد وفاة الكواكبي بعام . فكان من الكتب التي تركت أثرا عميقا في نفس بشير السعداوى من حيث أن كراهية الاستبداد صارت متصلة في نفسه ، وازداد ايمانه بوجود انشاء الحياة الحرة الديمقراطية والتعجيل باعلان الدستور ، حتى تستطيع الدولة مؤئل خلافة المسلمين ان تحفظ كيائها من جهة ، وان تنهض بالشعوب الاسلامية من جهة اخرى . واجتهد بشير السعداوى ليقف على شئ من سيرة عبد الرحمن الكواكبي الذي كان قد توفي حوالى هذا الوقت (١٣٢٠ هـ) فعرف انه اشتهر بكراهيته للاستبداد والظلم .

على أن الجديد في تفكير الكواكبي والذي استدعى انتباه بشير السعداوى هو محاولته أن يفرق بين الدعوة لاهياء العالم الاسلامى ، وانشاء الرابطة او الجامعة الاسلامية التى تحقق فى نظر الداعين اليها البعث الاسلامى نفسه ، وبين الدعوة لنهضة الأمة العربية واستثارة العزة العربية فى نفوس الأمم العربية التى يفرق بينها وبين سائر الأقوام الاسلامية ، بما فى ذلك الأتراك انفسهم ، اختلاف الجنس وقد اثبت على التفرقة بين الاتحاد الاسلامى ، والنهوض العربى ، تفرقة اخرى بين الخلافة الاسلامية فى وضعها الراهن وقتئذ وقد احتوتها الدولة العثمانية ، وبين ما يجب أن يكون عليه وضعها ، بما يتفق والصلة الوثيقة بين الاسلامية والدور الذى قام به العرب فى انتشارها ودعم اركانها ، الامر الذى يوجب أن يسترد العرب الخلافة من العثمانية فينصبوا خليفة من قريش . وقد دعا الكواكبي لاقامة الخلافة العربية فى قريش صراحة فى (١م القرى) عند راح يتكلم باسمه عن « اعزاز الدين بالعرب ، دون دولة آل عثمان وملوكها العظام » وطالب باقامة خليفة عربى قرشى مستجمع للشرائط فى مكة .

وكان مما لاحظته بشير السعداوى ان هذا الأسلوب الجديد فى التفكير، وان اتفق وما تغفل فى نفسه من الايمان بالفترة الاسلامية والشعور بالعزة العربية ولم يكن يختلف فى الوقت نفسه عن الآراء التى نادى بها كل أولئك الذين تأثروا بأرائهم من الكتاب والفلاسفة مثل الأستاذ الامام محمد عبده وجمال الدين الافغانى . لكن آراءه كانت تناقض ما ذهب اليه كل من الافغانى ومحمد عبده فالأول يرى ضرورة توحيد العالم الاسلامى تحت حكم خليفة واحد سواء اكان هذا الخليفة عربيا أم تركيا أم مصريا أم غير ذلك طالما كان له من القوة ما يجعله قادرا على الاحتفاظ بسلطاته فى عقر داره فحسب ، بل ومعاونة الأمة الاسلامية على النهوض حتى تبعث بعثا جديدا تتحرر بفضلها من كل القيود المعروفة لتقدمها الداخلى وحتى يتسنى لها أن تدفع عن نفسها شر الاستعمار الأجنبى والثانى من حيث أنه يرى من شرائط بعث الاسلامى من الناحية السياسية أن تبقى الخلافة عثمانية وأن يقوى ويشد ساعد هذه الخلافة العثمانية لمناط آمال المسلمين . وكان وجه الخلاف بين هذين وبين عبد الرحمن الكواكبي انه - يرفض أن تظل الخلافة (عثمانية) ويريد أن تكون عربية .

ولقد كان لفكرة الخلافة العربية التى ابتدعها عبد الرحمن الكواكبي أثر فى تطور الفكرة العربية عند بشير السعداوى وغيره من الرواد العرب فى مشرق الأمة العربية ومغربها على السواء .

إذا ما قارنا الكواكبي بنجيب عزورى الذى أصدر كتابا له فى باريس سنة ١٩٠٥ باللغة الفرنسية بعنوان (يقظة الأمة العربية فى آسيا التركية) نجد الفارق كبير فالأول (الكواكبي) صار بفضل ما نشره فى مصر (كتابه أم القرى وطبائع الاستبداد علما من اعلام الحركة العربية بلا منازع . ولا يمكن لدراس التاريخ الحديث ان يؤرخ للحركة العربية دون ان يشير بالدور الكبير الذى قام به

الكواكبي في هذه الحركة • لقد أحدثت كتاباته استنهاضا للهمم ودعوة للثورة على الاستبداد ونبذ الجهل والأخذ بأساليب التقدم •

كان عزورى نائبا لمصرف القدس ثم ضاقت نفسه كشأن كل الأحرار بأوضاع الدولة العثمانية في ظل السلطان عبد الحميد الثاني فغادرها الى باريس التي كانت أحد المراكز الكبيرة لاقامة الأحرار العثمانيين • وهناك أصدر كتابه الذي طالب فيه بإنشاء دولة عربية مستقلة عن الدولة العثمانية تضم سوريا والعراق ولبنان و نجد واليمن والحجاز في شكل اتحادى وإن يعمد بالخلافة الى شريف الحجاز حيث يصبح هذا الخليفة العربى صاحب سلطة معنوية على جميع مسلمى العالم •

لم تكن لدعوة عزورى التأثير الذى بلغته دعوة الكواكبي لدرجة أن الأمير مصطفى الشهابى فى كتابه محاضرات عن القومية العربية يؤكد أن أحدا لم يهتم بها لكنه لا يمكن أن ننكر دور كتابات عزورى الى هذا الحد لكن قراءه ومحيط انتشار كتابه كان محدودا اذا ما قورن بالكواكبي •

وقد خص الكواكبي مصر بقدر كبير بين أقطار العالم العربى وهو يتفق مع الافغانى فى هذه الناحية • نجد الكواكبي يختار مصر مقرا مؤقتا لجمعيته التى اسماها جمعية تعليم الموحدين وهى التى قررت جمعيته أم القرى وجودها بهدف تعليم المسلمين شئون دينهم الصحيح واصلاح اصول تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية • والمعروف أن الكواكبي فى كتابه أم القرى تخيل اجتماعا لعلماء المسلمين بمناسبة موسم الحج عقد فى مكة أم القرى لبحث علة المسلمين وأدلى كل عالم بدلوه فى هذا السبيل ثم انتهى الى تشخيص الدواء على نحو ما بسطناه فى كتابنا عنه •

وقبل أن تنهى جمعية أم القرى اجتماعاتها التى تخيلها الكواكبي اقترت قانونا بإنشاء بجمعية تعرف تعليم الموحدين من مائة

عضو منهم عشرة عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون واشترط في الأعضاء العاملين والمستشارين عدة صفات أهمها المقدرة على التكلم والكتابة بالعربية ومهمة الجمعية ألا تتدخل في السياسة وإنما مهمتها تعلم القراءة والكتابة والترغيب في العلوم وإصلاح أصول تعليم اللغة العربية . وكان الكواكبي يرى أن أحد أسباب أعراض الناس عن تعلم اللغة العربية هو سوء الكتب الموضوعة لهذا الغرض والمحشوة بأشياء صعبة على المبتدئ في تعلم هذه اللغة وللجمعية مهمتها في المجال الديني ، ونشر بحوث شهرية في الأمور الدينية تستهدف تعليم المسلمين أصول دينهم الصحيح دين السلف الصالح وتهتم الجمعية بإعداد ثلاثة منها كي يكونوا مرشدين ومبعوثين في البلاد الإسلامية المختلفة .

وهكذا يرى الكواكبي أن مصر هي خير البلاد العربية التي يعول عليها في تعليم اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي وقال في هذا الصدد :

أن جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت في مصر دار العلم والحرية فلها أمل قوى في أن حضرة العزيز عباس الثاني يكون عضداً للقائمين بأعزاز الدين ورئيساً فخرياً للجمعية . ولا بدع فإنه خير أمير شاب نشأ على الغيرة الدينية والجمعية العربية خصوصاً جنابه السامي من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الإسلام وأمرائه قصب السبق في الاطلاع على أحوال الدنيا ، فاجتهدوا في الترقيات السياسية والعمرانية والعلمية والتنظيمية والمدنية ، حتى أن النهضة العثمانية بكل فروعها مسبقة في مصر ومقتبسة عنها ، بل كما يعلم العارفون أنها تقدمت الدولة العلية العثمانية بعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد على وإبراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات ، فما كان رشيد وعالي وفؤاد كمال ومدحت وعوني وبقيّة

أحرار الأتراك الا واكثرهم آلات اوجدتها ومدها بالقوة هؤلاء العظام،
ولا غرو فقد يحمل الابن اياه على الرشد وان اياه ٠٠٠٠ ، ٠

كان الافغانى يرى نفس الرأى فهو يعلق اهمية خاصة على
مصر فى اصلاح احوال المسلمين فقال ل: فى صون مصر فى حوزة
الملك الاسلامى وكشف الاتجليز عنها صون للممالك العثمانية ،
وغلق لكل بلية مهياة فى المسألة الشرقية ٠

اما الفرق بين دعوة الكواكبي ودعوة الافغانى هو ان الكواكبي
كان صاحب دعوة قومية يركز على حق العرب فى قيادة الأمة
الاسلامية وعلى ضرورة تحريرهم من ال نير التركى وعلى هذا ينبغى
ان يترك ال عثمانيون الخلافة الاسلامية الى العرب فهم اهلها واحق
بها، ولا سبيل لاصلاح العالم الاسلامى الا أن يكون الخليفة عربيا
قرشيا ٠ اما الافغانى فكانت دعوته دينية لا يدعو لقومية من القوميات
فهو يلتزم صلاح العالم الاسلامى ويبحث فى مواطن علته وضعفه
ويرى أن حركة الاستعمار الأوروبى حركة دينية بالدرجة الأولى وانها
امتداد للحركة الصليبية ٠

وقد قدم لوثرروب سستودوارد مؤلف كتاب حاضر العالم
الاسلامى الذى ترجمه وعلق عليه شكيب ارسلان ، ملخصا لدعوة
الافغانى وفكرة الجامعة الاسلامية على النحو التالى : العالم
النصرانى على اختلاف اممه وشعوبه عرقا وجنسية ، هو عدو مقاوم
مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص فجميع الدول
النصرانية متحدة معا على نك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى
ذلك سبيلا ٠ الروح النصرانية متحدة لم تبرح كامنة فى النصرارى
كون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم
حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل ٠ فالنصرانية
لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها

ومتمشيا في كل عرق من عروقها وهي أبدا ناظرة الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني المقوت تحتل الدول النصرانية اعدارا لها في كرهاها وهجومها على الممالك الاسلامية واذلالها واكراها بقولها ان الممالك الاسلامية هذه ، انما هي من الانحطاط والتدنى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شئون نفسها ، وفق جميع هذا فهذه النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتتذرع بالوف الذرائع من نواحي أخرى حتى بالحرب والحديد وال نار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الاصلاح والنهضة • جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا عاما ، مستمسك الأطراف وثيق الحرى ليستطيع بذلك الزيادة عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء المقبل والموصول الى هذه الغاية الكبيرة انما تجب عليه اكتناء الغرب الوقوف على تقدمه وقدرته •

ويرى بعض المؤرخين في كلام الافغانى انه يأخذ حركة الاستعمار الأوربي على انها حركة دينية نصرانية موجهة ضد الاسلام وهو تفسير يتغافل عن العوامل الموضوعية والبواعث الجذرية للاستعمار وهو لا مجال لبحثه هنا •

لكننا نريد أن نقول أن هناك فرقا بين دعوة الافغانى والكواكبي فالأخير يرى أن أمر هذه الأمة الاسلامية لا يصلح الا بماصلح به اولها وهو أن يكون للعرب دور الريادة فيها ونعى على العثمانيين هضمهم لحقوق العرب ورأى أن السبيل لنهضة الاقطار الاسلامية هي في قيادة العرب لهم ومن ثم اقترح في جمعية أم القرى جمعية مركزها محصر للتثقيف والتعليم والدراسة ولم ير خيرا من مصر مركزا ومقرا لهذه الجمعية •

وإذا كان ذلك هو ما ارتاه الكواكبي فان رشيد رضا قد آمن بنفس الشيء ومن ثم كان انشاؤه لمدرسة الدعوة والارشاد في مصر .

كتب رشيد رضا في المنار عدة مقالات توضح فكرته في انشاء مدرسة جديدة هدفها اصلاح الدين وتخليص أتباعه مما علق باذهانهم من أدران الأوهام والخرافات والبدع . وبدأت تتبلور في ذهنه فكرة انشاء المدرسة ورأى ان أهم ما يحتاجه الدين الاسلامى هو الدعاة المؤمنين بما يدعون اليه المسلمين بأمور هذا الدين ، وعندما تناقش اصنقاءه في مصر في هذا الموضوع وجد عندهم استجابة عالية ، واستعدادا للمعاونة .

وكان مما حبذ الى رشيد اخراج فكرة المدرسة الى حيز الوجود هو المكاتبات التي وردت اليه من شتى البلاد الاسلامية تستنجد به ضد نشاط المبشرين الاستعماريين اذ استهدف الاستعمار في تلك المرحلة من نشاطه في العصر الحديث اثاره الشكوك حول العقيدة الاسلامية وأخطر من ذلك ما كان يقوم به بعض المبشرين في الجهات الاسلامية النامية أو التي يوجد بها جماعات دينية تعيش بجوار المجموعات الاسلامية كما هو الحال في جاوه وغيرها . وكان المنار قد صار له قراء عديدون وأتباع يرسلون رشيد يستغيثون به فبعث أحد الساتحين المسلمين بسنقاورة الى رشيد رضا كتابا مؤرخا في ١٩١٠ جاء فيه . انى قد ترددت الى جاوه ومعلقاتها منذ ثلاث قرن وقد تبين لى ان دعاة الاستعمار (من الهولنديين) قد أضروا بالاسلام وأهله لتغلب الجهل عليهم لمنع الحكومة الهولندية دخول دعاة المسلمين وحجتهم أنهم ليسوا علماء بل دجاجة . وكل من منعته وطريقته ليس من متخرجى المدارس . هالنى ما رأيته في سياحتى هذه ، فان الداء قد تمكن وقتك بالأمالى فتكا نريسا .

وبالجملة أقول أن المتنصرين سنويا من مسلمي جاوه ومتعلقاتها لا يقلون عن مائة ألف انسان ٠٠ ولو وجد عالم له المام ببعض الدعوة وبعض المعرفة بلغة أوروبا وكان ذا عقل واعتدال وساح في هذه النواحي لوقف هذا التيار الجارف فكيف لو وجدت بعثة كالبعثات الأوروبية •

وظن رشيد رضا أن المسئولين الأتراك الجدد الذين آل اليهم أمر الدولة العثمانية بعد زوال حكم عبد الحميد قد يساعدونه في فكرته • ولكن خاب أمه بعد زيارة للاستقامة فعاد الى مصر موقنا أن السبيل الأمثل هو الاعتماد على تبرعات الأهالي ونوى الثراء • ونجح في تأسيس مدرسته سنة ١٩١٢ وجاء في مشروع تأسيس المدرسة أن تضم طلابا من مسلمي الأقطار الاسلامية ويفضل الذين هم في أشد الحاجة الى العلم كاهل جاوه والصين والدراسة داخلية توفر المدرسة الغذاء والنوم والكتب ويعتني بتدريب الطلبة على آداب الاسلام وأخلاقه وعبادته فيعيش الطلبة في جو اسلامي نقي بحيث يطرد الطالب اذا ثبت عليه الكذب أو اظهر تعصبا لجنس أو مذهب أو ارتكب شيئا من المعاصي • وحرّم على الطلبة الاشتغال بالسياسة وانما دراسة العلوم الدينية كالعقائد والتفسير والحديث والأحكام على الوجه المؤدى الى القدرة على إقامة الحجة وبسحق الشبهة وما يحتاجون اليه من العلوم الرياضية واللغات وتعتمد المدرسة على جمع التبرعات من أهل الخير •

وكان الطالب يعطى شهادة مرشد اذا قضى ثلاث سنوات في الدراسة ونجح فيها ، وهذه الشهادة تؤهل الطالب للقيام بالدعوة والارشاد بين المسلمين أو التدريس في مدارس الجمعية أما اذا اراد الطالب مواصلة الدراسة بعد هذه المدة ثلاثة أعوام أخرى فان هذا يؤهله لأن يصبح داعيا من الدعاة ، أى أولئك الذين يقومون بدعوة

غير المسلمين الى الدخول فى الاسلام ، وكان على الطالب أن يتعهد
بقبول التوجه الى أى بلد يراد ايفاده اليه .

وقد اشرنا فى كتابنا عن محب الدين الخطيب الى أنه سعد كل
السعادة حين دعاه رشيد رضا ليكون أحد أساتذة هذه المدرسة
فيقول فى مذكراته : وأسس السيد رشيد رضا دار الدعوة والارشاد
واتخذوا لها مكانا فى قصر شريف باشا على يمين الداخل الى
جزيرة الروضة من كوبرى الملك الصالح واختارونى مدرسا
للجيولوجيا وبدأت التدريس بنمط جديد لفت نظر طلبة هذه المدرسة
الدينية الاسلامية الى سرائر الله فى الكون وتكوينه وكان من طلبة
تلك المدرسة الحاج أمين الحسينى ويوسف ياسين ومحمد الشرفى
وآخرون صاروا فيما بعد كلهم علماء وكلهم يقولون لى حتى الآن
انت أستاذنا للمحبة التى استطعت أن أعدها بين قلبى وقلوبهم مدة
الدراسة وبعدها .

وفى نفس الشهر الذى تم فيه افتتاح المدرسة أتيحت لرشيد
رضا زيارة بلاد الهند وألقى خطابا فى ندوة العلماء بلكهنوه بالهند
موضحا تجربته فى ميدان التربية والتعليم وعندما عاد تابع الاشراف
على مدرسته حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث تعطلت الدراسة
بها ولم تفتح أبوابها مرة أخرى بعد أن شغل رشيد عنها بالمرحلة
الجديدة التى دخلتها الحركة العربية مع اندلاع تلك الحرب .

وهكذا بفضل وجود رشيد رضا على أرض مصر ، استطاع
أن يصدر المنار وأن يؤسس دار الدعوة والارشاد مثلما استطاع
الكواكبي أن يخلد نفسه بهذين العاملين العظيمين الذين صدرا له
فيها وهما طبائع الاستبداد وأم القرى . كانت مصر هى التربة
الصالحة لهذين العاملين كى يدخلوا أبواب الإصلاح الدينى
والاجتماعى للأمة العربية فضلا عن الجوانب السياسية .

حملت المنار الدعوة مطالبة باستعراب الأتراك وطفحت بالمقالات عن العرب وامجدهم القديمة وتاريخهم الحافل بالبطولات عن الوحدة العربية التي كان ينشدها رشيد ضمن الرابطة العثمانية . وتمنى لو أن سلاطين آل عثمان نحو السلطان سليم الأول في تفكيره يجعل اللغة العربية لغة الدولة . ولو أنهم جعلوا ولاياتهم كالولايات المتحدة في أمريكا تستقل كل ولاية في ادارتها الداخلية ويكون حكامها منها . وقد ضمن السيد رشيد رضا مجلته منذ عام ١٨٩٧ مقالات تحمل عناوين تتحدث عن الدين والدولة ، والخلافة والسلطنة، اعادة مجد العرب، الوحدة العربية، الترك والعرب وافكارا جريئة منها أن نجاح الأمة والدولة العثمانية وارتقاءها الكامل متوقف على وحدة لغتها وأن اللغة العربية تترجع على التركية بأمور منها كونها لغة الدين ، وامكان نشرها بسهولة ، لأن التركي مضطرا الى تعلمها طالما هي لغة دينه ، وأما العربي الذي لا طمع له في مناصب الدولة فلا يهتم بتعلم اللغة التركية . ومنها أن الناطقين باللغة العربية في الدولة أكثر عددا ، وأن علماء المسلمين بما فيهم الأتراك في جميع اقطار العالم يعرفونها . لذلك يجب أن تكون هي لغة الدولة، وأن مكة باعتبارها مقصد حج المسلمين في كل عام ، هي الأفضل من الاستانة كمركز للخلافة . ومنها ما جاء في مقال الترك والعرب ما يرى الى اثبات أفضلية العرب على الترك بمعارفهم وبإمامهم الطويل في العلوم والزراعة والطب والفلك والفلسفة الى آخر ما شادوه من حضارة ومدنية وهشت المتتبعين لأخبارهم ، وأن انضواءهم في ظل العالم العثماني هو الذي أخرهم . وظهرت المقالات منذ ١٩٠٤ في صفحات المجلات في مصر بعضها يناصر حق الأتراك في الخلافة والآخر ينكر عليهم ذلك . وفي مقال بجريدة (ترك) الصادرة بمصر بعنوان « دعوة الخلافة » هاجم كاتبه العرب ونسب اليهم التبجح بدعوى الخلافة ، ونفى عليهم حب زعمه اتخاذهم الأوام

الباطلة والأسس الواهية لمنسبتهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن بالعربية حجة على تأييدهم دعواهم قائلاً انه لا يروقهم كون الخلافة فى يد الترك ورد صاحب المنار ينفى عليه عزاعمه وأن ليس بين العرب من ترنو نفسه الى منصب الخلافة ، ولكن بشرط أن يقيم الخليفة العثمانى العادل واستعرض الششيخ رشيد ثورة اليمن فيقول أن اليمانيين لموعولوا بالعدل لما كانوا يثورون ، فالعرب لا يصبرون على الضيم ، فاذا ساءت معاملتهم ساءت أعمالهم ٠٠٠ ثم يقول « هذا وان حجة العرب فى الخلافة حجة صحيحة وفقاً للحديث الصحيح » الخلافة فى قريش ، وهى حجة لم يخالفهم فيها أحد من علماء الترك ١٠ ولا يقدر أحد أن يقول أن حديث الرسول من « الأوهام الباطلة والأسس الواهية » .

والى جانب صحيفة الفلاح التى اشرنا اليها من قبل وللتى صدرت سنة ١٨٨٥ تؤيد حق السلطان عبد الحميد فى الخلافة جاء الى مصر فى نفس العام من استنبول (١٨٨٥) سليم فارس الشدياق بن أحمد فارس الشدياق صاحب (الجوائب) والذى كان أكثر داعية للمملكة العثمانية بالعربية فى استنبول وكانت جريدة سياسية أسبوعية وكان من طائفة المورانة ولد فى قرية صغيرة من قرى لبنان تسمى عشقوت سنة ١٨٠٥ . جاء أحمد فارس الشدياق الى مصر وأقام فيها من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٤ ويقول المؤرخون لحياته انه استفاد كثيراً من توجيهات الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى أخذه معه محرراً فى الوقائع المصرية ثم سافر الى تونس بعد جولة فى فرنسا وانجلترا وكان قد أقام فى مالطة قبل تلك الجولة لكل من هاتين الدولتين (فرنسا وانجلترا) وذكر جرجى زيدان فى كتابه المعروف تراجم مشاهير الشرق أن باى تونس أسند اليه منصبا هاما وهناك اعتنق الديانة الاسلامية وسمى نفسه أحمد فصارا اسمه

أحمد فارس الشدياق • كذلك أشار مؤرخ الصحافة الكونت دى طرازى الى هذه الواقعة • وفى سنة ١٨٦٠ انشا جريدة الجوائب صدر اول أعدادها فى يوليو من ذلك العام •

وكان مجيئ سليم بن أحمد فارس الشدياق سببه أن يزف الى المصريين نبأ وصول مختار باشا مندوب السلطان وليحدث المصريين عن المسألة المصرية فهى أعظم المسائل التى تهم المسلمين اليوم عموما حيث أن الخديوية تابعة للسلطنة وقد زادت العراقيل بينهما لسوء تدبير انجلترا • ولضيق سرور الأهالى من مجيئ المرخص العالى (يقصد المفوض العثمانى الغازى مختار باشا) لينشر خطبه وأخبار مقابلاته مع اعيان المصريين لاستطلاع آرائهم • وكانت صحيفة القاهرة التى أصدرها سليم تنشر أخبار مختار باشا قبله أخبار الخديوى توفيق وتنشر خطبه بالتركية مع ترجمة لها بالعربية وقد كان واضحا أنها تخاطب العناصر التركية الشيركسية التى ثار عليها عرابى • فلما عطلت صحيفة القاهرة سنة ١٨٨٦ أعاد سليم فارس الشدياق إصدارها فى سنة ١٨٨٦ باسم القاهرة الحرة وتوسع فيها فى المقالات المحررة بالتركية وكشف فيها لرعايته للسلطان عبد الحميد وللخلافة العثمانية ثم انتقل امتياز القاهرة الحرة فى سنة ١٨٨٧ الى عارف بك المردينى الذى استكتب فيها ولى الدين يكن وعزيز زندو وأيوب عون ومحمد بك المويلحى وذلك بعد عودته عن استنبول • والمعروف أن الدولة العثمانية كانت تدفع أموالا لعدد من الأقاليم الموالية لها لتدعو المصريين الى طاعة خليفة المسلمين وكان اعتمادها كبيرا على عدد من الصحفيين الشوام •

وقد تجلى نشاط العرب فى مصر فى مقاومة السلطان عبد الحميد بتأليف جمعية عربية تحمل اسم جمعية الشورى العثمانية The Ottoman Consultative Society بعد عام ١٨٩٧ بقليل

وكان من مؤسسيها محمد رفيق المعظم ورشيد رضا وسأهم في
أدائها وفاعليتها رجال آخرون من العثمانيين من ترك وأرمن
وجركسي .

وعندما جاء الخطيب الى مصر علم بتأسيس جمعية الشورى
العثمانية والتي قال عنها رشيد رضا انها قامت لأجل جمع كلمة
العثمانيين على استبدال حكومة الشورى بحكومة المستبدين . . .
وأن العثمانيين ماداموا متفرقين شيعا ومتقطعين مللا وأما فكلمتهم
هى السفلى وكلمة الاستبداد هى العليا فتألفت الجمعية من المسلمين
عربهم وتركهم والبانهم .

ويذكر الشيخ رشيد رضا فى مجلة المنار انه ازاء اشتداد
ظلم الدولة واستبداد السلطة المطلقة فيها من أول هذا القرن
الهجرى نفر المتحدون معها فى الدين واللغة والجنس نفورا أشد
من شعور المتحدين معها فى الدين فقط كالعرب والأكراد . فانبرى
بعض أهل الغيرة من الترك الى تأليف جمعية سرية تسعى فى تلافى
الخطر الذى يندر دولتهم بإزالة الحكم المطلق الاستبدادى المدمر
للمماليك والمهلك للأمم وإعادة مجلس (المبعوثان) والعمل بالقانون
الأساسى . ولكن السلطان تتبع وأعوانه أثر هذه الجمعية ففرق
شملها قبل أن تبدأ بعمل ما يظهر من فساد أخلاق بعض أعضائها
الذين صاروا أعوانا للاستبداد بما نالوا من الرواتب والرتب مذهب
بثقة الناس حتى من الصادقين عن سائرهم ، هذا وإن هذه الجمعية
لما لم تكن مؤلفة من جميع الشعوب العثمانية كانت جديدة بالأ تدرأ
الخطر ولا تنال الظفر .

ويذكر رشيد رضا أن كثيرا من عقلاء العثمانيين فكروا فى
وجوب السعى فى تأليف جمعية من الشعوب العثمانية كلها ومازال

هذا الفكر يتقلب فى الأطوار حتى تمخض فولد (جمعية الشورى
العثمانية) •

تأسست جمعية الشورى العثمانية حسب قول رشيد رضا من
أفراد من الترك والعرب والأرمن والكرد الغرض منها اتحاد الشعوب
العثمانية على اختلاف أجناسها ومللها فى السعى لجعل الحكومة
العثمانية حكومة شورى وعدل ، وهذه هى الطريقة المثلى لصيانة
الدولة من التمزيق بالاختلاف الذى هو ظهر الاستبداد والتفرقة
الذى هو نصير الاستعباد • وكان ممن اشترك معنا فى تأليفها
رجال من سائر الشعوب العثمانية الكبرى وفى مقدمتهم الترك
والجركس والأرمن ، وكان من أعضائها المؤسسين الضابط صائب
بك الذى كان صاحب لصاحب الدولة أحمد مختار باشا الغازى
ومندوبها لجمعية الاتحاد والترقى بمصر • ثم ترك خدمة المندوب
العثمانى السامى ايثارا للسياسة التى تغضب السلطان عليه ومنهم
الدكتور عبد الله جودت بك المشهور بأحد مؤسسى جمعية الاتحاد
والترقى أول أمرة وكان هو السكرتير التركى لها • وكاتب هذه
السطور (يقصد نفسه رشيد رضا) رئيس مجلس ادارتها •

كان تأسيس هذه الجمعية موافقا لرأى صاحب الدولة أحمد
مختار باشا الغازى المندوب العثمانى السامى بمصر • فيقول رشيد
رضا وأنا الذى استشرته فى ذلك طلبت منه ان يمنحها رعايته ويأذن
لنجله محمود باشا ان يكون الرئيس العام أو رئيس شرف لها فمدها
بمساعده وقال ان الاصلاح لا يأتى من الأعلى ومن رجال الدولة
وانما يأتى من وسط الأمة ومن الطبقات الدنيا فيها وأخبرنى ان
السلطان علم بوجود الجمعية وهو يرسل اليه البرقيات تترى فى
السؤال عنها وعن مؤسسيها ويسميتها جمعية افسادية وأنه تجاهلها

فى جوابه أولا ثم مكتب اليه بأنه لا افساد منها ثم لا ضرر منها فانه مؤلفة من بعض اهل العلم وأبناء الأسر الوجيه المخلصة للدولة •

وكان للجمعية فروع خارج الدولة العثمانية وكانت وسائل دعايتها تطبع بالعربية والتركية ، وترسل منشوراتها الى الموانى التركية على البحر الأسود بواسطة المسافرين وبصارة المراكب الروسية ، ومن هنا يستلمها رسل سريون وتوزع فى أنحاء البلاد • كما كانت مكاتب البريد الأجنبية التى حصلت مختلف الدول الأوربية على امتيازاتها فى اراضى الدولة من أجل مخابراتها الخاصة - بسبب عدم كفاية مصلحة البريد العثمانى اسلم واسطة واضعنها لاىصال صحف الأحرار ورسائلهم ومناشيرهم من الخارج الى داخل المملكة حيث يستلمها الرسل السريون ويوزعونها • وقد ضائق عبد الحميد ذرعا بهذه المكاتب وصمم على اخضاعها لمراقبته ولكن أمام تهديد الدول له اعتذر الباب العالى عن ذلك وتعهد بعدم العودة الى مثل ذلك •

صار لجمعية الشورى العثمانية وقت وصول الخطيب الى القاهرة (١٩٠٧) ثلاثة عشر فرعاً فى ولايات الدولة العثمانية وفى البلاد الأجنبية وكانت تطبع المنشورات باللغتين العربية والتركية ثم أصدرت فى فبراير ١٩٠٧ جريدة باسمها الشورى العثمانية فتولت الجمعية نشر ما تريده واستغنت بذلك عن المنشورات • وكان رفيق المعظم يحرق القسم العربى منها وابن عمه حقى المعظم يحرق القسم التركى الذى كان ترجمة لما يكتبه رفيق المعظم أو رشيد رضا أو غيره من اعضائها فى القسم العربى • كما يذكر رشيد رضا أن هذه الصحيفة كانت تصدر بها بعض المقالات باللغة الفرنسية •

وانضم محب الدين الخطيب الى عضوية جمعية الشورى العثمانية وأحاطه رشيد رضا بمياسها التى أعلنت على صفحات

المنار والتي دعا العثمانيين الى المسارعة بدخول الجمعية افواجا ولتعضيدها بأرائهم وأموالهم • وأعجب الخطيب بمبادئها وقال أن الدعوة الى الحكم النيابي ومبادئ الشورى والعمل للتخلص من الحكم الفردي كل ذلك مما نعتقد فيه الخير • فمبدأ الشورى هو مبدأ الديمقراطية بالمضمون الذي حدده الاسلام وقيل أن طبيعة الجمعية وتكوينها كجمعية عثمانية تضم العثمانيين من مسلمين وغير مسلمين وتسعى لكي يقيم لها قروعا في البلاد العثمانية وفي غيرها من البلاد التي يقيم فيها العثمانيون فهي جمعية غير طائفية وغير عنصرية • وانها تؤمن باتباع الأساليب المشروعة في الوصول الى هدفها فهي لذلك جمعية علنية •

ومن المعروف أن رشيد رضا كلف محب الدين الخطيب أن يتخير لجمعية الشورى من العثمانيين الرجال الصالحين وكتب له تفويضا بذلك فقد كانت جمعية تفتح عضويتها أمام كل عثمانى عاقل محب لوطنه على أن يكون حفيد السيرة واشترطت أن تحل الأرقام بدلا من الاسماء في تعريف الأعضاء ومخاطبتهم والكتابة اليهم •

واضح من اسم الجمعية انها كانت تعمل على أن تحل الشورى محل الحكم المستبد في الدولة العثمانية ولما لم يكن هناك ما ينمى أن يكون الفرد عضوا في أكثر من جمعية فقد انضم الخطيب الى جمعية الشورى العثمانية في الوقت الذي كان عضوا بجمعية النهضة العربية •

وبالرجوع الى ما كتبه الخطيب في نوفمبر ١٩٠٨ في أوراقه التي رجعنا اليها في كتابنا الذي أصدرناه عن حياته ودوره في الحركة العربية نجده يؤكد أنه وجميع من استعان بهم وتعاون معهم من رجال العرب وشبابهم لم يخطر على بالهم الانفصال عن الدولة

العثمانية لأن الاستقلال عن الدولة وهي ضعيفة مريضة أمر مكروه ولكن لعلنا أن تمرن الشعوب على أخلاق السيادة يحتاج الى وقت فكان من مصلحة العرب في الدول العثمانية أن تعترف لهم الدولة بلغتهم في الادارة والتعليم في البلاد التي يتكلم أهلها اللغة العربية وأن لا تبلغ بها الحماقة الى حد أن يكون التعليم في بلادهم بلغة أجنبية عنهم والى حد أن تكون لغتهم محرما عليها أن تكون لغة الادارة والقضاء في صميم الوطن العربى • ومن العجيب أن تنكر الدولة العثمانية على عرب الحجاز والعراق وسوريا ما اعترف به الانجليز لمصر والسودان من حقها في أن تكون لغتهما العربية لغة التعليم والتعامل في مرافق الحكومة ومصالحها الرسمية •

ومن المعروف أن الخطيب استطاع أن يجذب بعض ضباط الجيش وبعض المثقفين في اليمن للانضمام الى عضوية جمعية النهضة العربية التي يرأسها أو الى جمعية الشورى العثمانية التي فوضته في ضم من يثق فيهم لعضويتها • وهكذا نجح الخطيب في تأسيس الفرع الرابع عشر لجمعية الشورى العثمانية في اليمن •

وقد ارفقنا في بحثنا عن محب الدين الخطيب صوراً من المكاتبات التي دارت بينه وبين رفيق العظم • ويخرج الباحث بحرص رفيق على السرية في مكاتباته لأن جمعيته (جمعية الشورى العثمانية تعمل في المحيط السياسى فهو يقول للخطيب في رسالته منه في ١٨ مايو ١٩٠٨) لكن انقبض صدرى من انكم لم تخبرونى عن وصول آخر كتاب ارسلته اليكم بالعنوان الثانى الذى كتبتموه لنا وهو عنوان الدكتور الذى فى عدن مع ائى ارسلته من مدة شهر أو يزيد وفيه لا يجوز اطلاع أحد غيركم عليه فالرجا ان تصالوا ذلك الدكتور عن الكتاب فقد كدرنى جدا انكم لم تخبرونى بوصوله وائى التمس منكم تأليف فرع الجمعية عندكم يرتبط بنا رأسا وفيه كلام

طويل يسيئوننى أن يراه غيركم مع انى لم أكتف بكتابة العنوان وحده بل أضفت ومنه الى محب الدين الخطيب (• ونلاحظ كثرة الرموز فى الرسائل المتبادلة بين رفيق العظم ومحب الدين الخطيب مثل قول رفيق للأخ ع بك ولكل انصار الحق وفى رسالة بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٠٨ • سبق أن وقع اختياركم على الأخ الفاضل الدكتور (ح) •

وامعانا فى السرية ينبهه رفيق الى أهمية الكتمان فالداخل أو المنضم للجمعية لا ينبغي له معرفة أحد من الجمعية الا من فوقه أو من تحته أى الذى ادخله والذى دخل بواسطته ثم ان لكل من يؤسس شعبه أن يكون رئيسها الا اذا تنازل عنها لغيرها ولذا فأنتم الآن ١٤/١ فشعبتكم هى الشعبة ١٤ وكل داخل توضع نمرة الخاصة من فوقه وغرة شعبته من تحت • وينبه رفيق العظم الى أن عقاب من يخون الجمعية الموت والشعبة هى التى تكلف باجراء العقاب على من يخون اما بالافتراء أو بإنشاء فرع لكل شعبة من الفدائيين تكلف بمثل هذه الأعمال ويشير رفيق على الخطيب أن يكثر من ادخال الفدائيين فى جمعيته ويرى أن هؤلاء عادة يكونون من الطبقة النازلة (الطبقة الدنيا) وأكثرهم على ما اعتقد يعتادون الصدق فهم أهل للثقة أكثر من البقة العالية •

وحين يسأله الخطيب ان يبيع له بأسماء مؤسسى جمعية الشورى يقول له • سألتهم عن بعض أسماء المؤسسين وإذا كنا جميعا تحت اسم الحرية فلا أضن به عليكم وهو الداعى (رفيق العظم وابن عمى حقى بك والسيد رشيد رضا والسيد عبد الحميد الزهراوى وأحمد بك صائب صاحب جريدة (سنجق) والدكتور عبد الله بك جودت صاحب مجلة (اجتهد) والدكتور شبلى شميل الفيلسوف المشهور وصحافى رومى وشخصان أرمنيان • لكن أشغال الجمعية وأسرارها وجريدها وكل ما يتعلق بها قائم فى الحقيقة على

كاهلى وكامل حقى بك فانا أحرر القسم العربى من الجريدة وهو
يحرر القسم التركى والمكاتبات العربية على ٠ ويعود العظم الى
تنبيهه الى الميرية د أحب أن أوصيكم بالاحتياط الشديد وأن ايدى
الأشرار من زبانية الحكومة تصل الى شىء من أثار الجمعية عند
أحد منكم لأن الحكومة فى غاية التيقظ خصوصا بجمعية الشورى
العثمانية التى تحقق عندها أن ليس فيها من تبتاع ضميره فقط وقد
طاردت القائمين بأعمال الجمعية فى الأستانة حتى جاءت شخصين
منهم الى الفرار بأنفسهما منذ ١٥ يوم الى مرسيليا واحدهما الذى
كان ي كاتب الجريدة من الأستانة فخصرت الجمعية بقراره ركنا كبيرا
لذا نرجوكم الاحتياط الشديد إذ يهمننا جدا سلامة أفراد الجمعية
وبقائهم فى تركيا ومتى خرج أحدهم منها عدمته البلاد ولا تستفيد
منه الجمعية فى الخارج ٠

وعندما قامت حركة الاتحاد والترقى فى ١٠ يوليو ١٩٠٨ عمت
الفرحة سائر الأقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام والى المصريون
قصائد شعرية فرحة بهذه المناسبة وشكرا للسلطان العثمانى الذى
أنعم على البلاد باعادة العمل بالدستور الذى كان قد عطل ٠

قال أحمد شوقى قصيدة مطلعها :

بشرى البرية قاصديها ودانيتها

حاط الخلافة بالدستور حاميتها

ثم يقول :

اسدى الينا امير المؤمنين يدا

جلت كما جل فى الأملاك مسديها

وليس مستعظما فضيل ولا كرم
من صاحب السكة الكبرى ومثالثها
ان الندى والرضى فيه واسوته
والله للخير هادية وهاديهها
خلافة الله في احضان دولتهم
شباب الزمان وما شابت نواصيها
وفى نهايتها يهنئ العثمانية ويشير الى حال عصر والى
امانى المصريين فيقول :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حياتك من بيعت الموتى ويحييها
صبرت للحق حين النفس جازعة
والله بالصبر عند الحق موصيها
ما بين امالك اللاتي ظفرت بها
ويبين نصر معان انت تدريها

وهكذا نجد شوقي يؤكد الروابط التي تربط مصر بالدولة
العثمانية حين يقول اسدى الينا ثم انظر قوله فى آخر بيت ان مصر
تحلم بدستور لها شأنها الامانى التى نالتها الدولة العثمانية .

وقال حافظ ابراهيم فى قصيدته (تحية الاخلاص) مدحا
للسلطان عبد الحميد لاعلانه الدستور ومدحه سكة حديد الحجاز :

اننى الحبيب عليك والحرمان
واجل عيد جلوسك الثقلان
ارضيت ريك اذ جعلت طريقه
آمننا وفزت بنعمة الراضوان
وجمعت بالدستور حولك أمة
شقى المذاهب جملة الأضغان

والحقيقة ان الأشهر الثلاثة الأولى من عودة الدستور كانت مليئة بروح الحماس والمحبة والاخوة بين طوائف الدولة العثمانية فوقف أحد الأحرار الأتراك جلال الدين عارف وكان من الذين لجأوا الى مصر فى عهد الاستبداد الحميدى يوم الاحتفال باعلان الدستور خطيبا فى مصر وقال : اننا اليوم قد تنازلنا عن كلمة ترك وهى محبوبة لنا ، فكلنا عثمانيون لا فرقة عندنا بين الترك والعرب والروم وغيرهم .

ولم تكن مصر فريدة فى الاحتفال بعودة الدستور انما عمت الفرحة مختلف العرب فى الولايات العربية وخارجها . العرب السوريون فى الأرجنتين عن ولائهم للعهد الجديد بفتح اكتوبر عام ١٩١٤ بسفينة حربية هدية منهم للبحرية العثمانية وشكل أهالى بيروت حرسا وطنيا لمساعدة الجيش عند اللزوم وفى العراق ابتاع طالب بك النقيب نائب البصرة الجديد من ماله الخاص مركبا تجاريا وأهداه الى الحكومة كى تستخدمه فى المحافظة على شط العرب وتطوع لاصلاح العلاقات بين الأمير مبارك الصباح ، قائمقام الكويت وبين الحكومة .

وكتب شيلي شميل من أعضاء جمعية الشورى العثمانية التي
أشرفنا إليها من قبل في صحيفة الأهرام في ٨ - ٣ ١٩٠٩ (العدد
٩٤١٦) يقول أن على الحكومة العثمانية الجديدة أن تفرض على
البلاد لغة مشتركة تكون اجبارية ، واقتراح أن تكون التركية بالرغم
من أن اللغة العربية أغنى ماضيا وأوسع أدبا من ماضى اللغة
التركية وأدبها - باعتبار أن هذه (اللغة التركية) تستمد آدابها
من جميع اللغات فتقبل بسهولة كل ما تجده صالحا وتمثله بسرعة
فهى بالتالى أكثر ملاءمة لشكل الحكومة الحرة الجديدة .

وهكذا صار العرب مع بدء العهد الجديد مستعدين حتى
للتنازل عن لغتهم كلغة رسمية لتكون اللغة التركية راضين بذلك
مستبشرين بالعهد الجديد . وكان سليمان البستاني (مترجم اليازة
هوميروس الى العربية ، ومتم دائرة معارف بطرس البستاني ونائب
بيروت ثم صار وزيرا فيما بعد) مؤيدا لهذا الاتجاه . فقد جاء
فى كتابه (عبرى وذكرى) : أن أعظم الوسائل لضمان اضمحلال
التعصب الدينى تجنيد المسيحيين مع المسلمين ، وأعظم وسيلة
لاضمحلال التعصب الجنسى تعميم اللغة الرسمية ، وجعل اللغة
التركية اجبارية ، فإن هاتين الوسيلتين ، مع تعميم أسباب العلم
والتهذيب ، يضمنان توثيق عربى القواد والأخاء .

والقيت الخطب فى مدينة الاسكندرية فى احتفالات كبرى بهذه
المناسبة . وفى طرابلس الشام اشترك الأتراك والعرب فى إقامة صلاة
شكر لله على اعلان الدستور وقد أشرفنا فى كتابنا عن محب الدين
الخطيب الاحتفالات فى الحديدة وصنعاء وغيرها بهذه المناسبة .
وما أن علم الخطيب أن جمعية الشورى العثمانية تفكر فى أن تكون
خروجها قروعا لجمعية الاتحاد والترقى حتى رأى أن يكون فرع
الجمعية فى اليمن هو البادى بذلك . وعملا بمبدأ التعجيل بالأمر

الواقع أعلن الفرع الرابع عشر لجمعية الشورى العثمانية في
الحديدة أنه أصبح فرعاً لجمعية الاتحاد والترقى واتخذ له نادياً
فى مكان على مرفأ الحديدة •

ومن المعروف أن جمعية الشورى العثمانية رفضت قبل اعلان
الدستور أن تدمج فى جمعية الاتحاد والترقى ، فيذكر رشيد رضا
أنه جاءه مندوب عن الاتحاد والترقى وقابله مبلغاً إياه رغبة جمعية
اتحاد الترقي فى دمج جمعية الشورى معها فأبى رشيد رضا هذا
الطلب وقال لمندوب الاتحاد والترقى : أن تعدد الجمعيات مع وحدة
الغاية والمقصد لا يعد تفرقاً ولا يحدث ضعفاً • وإننا نرى أنه لا نجاح
للعثمانيين الا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور •

لكن نجاح حركة الاتحاد والترقى فى اجبار السلطان
عبد الحميد على العمل بالدستور اثار عواطف العرب وجعل جمعية
الشورى العثمانية تسعى الى أن تكون فروعها فروعاً للاتحاد
والترقى ، ولعل هذا أيضاً من باب التقرب من السلطة الجديدة التى
صار الجميع يأملون فيها الخير بعد عهد الاستبداد الحميدى •

ولما كانت مصر من الوجهة الشرعية ولاية من ولايات الدولة
العثمانية وللسلطان سيادة عليها وان كانت اسمية بحكم أن الخديوى
فى مصر كان يجرى تعيينه بخط سلطانى ، ويمثل السلطان فيها
موظف كبير يحمل لقب معتمد أو قوميسير عالى وآخر بلقب قاضى
مصر ، فان أحداث الدولة العثمانية كانت تتردد صداها فى مصر
وبين نقوس المصريين عامة • فالصحف المصرية لم تكن فى العهد
السابق على اعلان الدستور تظهر بمظهر اللامبالاة ازاء الأوضاع
العامة فى اراضى السلطنة العثمانية ووجد الترك الهاربين من حكم
الدولة العثمانية فى مصر ملجأ لهم ومأوى وأخذوا يصدرون فى
مصر جرائد خاصة بهم •

نكر توفيق برو فى كتابه العرب والترك فى العهد الدستورى
العثمانى اسماء الصحف التركية التى كانت تصدر بالقاهرة منها
المونيتور العثمانى بالفرنسية لليون فهمى وميزان عدالت له أيضا
وشورائى عثمانى قسم فيها بالعربية لجمعية الشورى العثمانية التى
كان من أعضائها حين نكرنا من قبل رشيد رضا ورفيق العظم ،
تعقيب استقلال لعبد الكريم هادى ، الخلافة والأمل لمصطفى راغب
وكانت تنطق بلسان تركيا الفتاة وغيرها من الصحف الأخرى •

كما نكر برو فى نفس كتابه أن الأحرار العثمانيين كانوا
يستعينون بمآل الخديو عباس حلمى الثانى ويحاولون اشراكه فى
المؤامرات لخلع السلطان وقد دفع فى إحدى المرات أربعة آلاف
جنيها للزعيم التركى اسماعيل كمال بك من أجل هذه الغاية وأن
البرنس صباح الدين جاء مرة الى مصر لنفس الغرض •

ويذكر أحمد شفيق فى كتابه مذكراتى فى نصف قرن أن رعاية
الخديو عباس حلمى الثانى للأحرار الأتراك قد سببت نفورا بينه
وبين السلطان بعد أن كانت العلاقة بينهما طيبة عندما كان يرد
اللاجئين اليه •

ومما أن أعلن الدستور حتى أقيمت احتفالات كبرى فى مصر
وأقيمت احتفالات فى الحزب الوطنى كما أقيمت فيه احتفالات
بمناسبة مرور عام على إعلان الدستور ، أقيمت الاحتفالات فى مقره
الرئيسى وفروعه فى المديريات • والمعروف أن مصطفى كامل وخليفته
محمد فريد كانا من أنصار الرابطة العثمانية وتقوية الروابط مع
الدولة العثمانية للتخلص من الاحتلال البريطانى • وعندما قامت
لجنة التنظيم للجالية العثمانية باحتفال بمناسبة الذكرى الأولى
لاعلان الدستور وكتبت فى رأس بطاقات الدعوة الجالية العثمانية

بمصر Colone Ottomane du Caire شنت صحيفة اللواء حملة شنيعة على تنظيمها وكتبت تقول : ياعجب كل العجب ، أهى مصر هذا البلد العثماني وبين المصريين يعرف بعض العثمانيين ذواتهم بأنهم جالية عثمانية وبأى شكل كان أولئك المعنيون يكتبون رقاع الدعوة الى مكان الاحتفال لو كانوا يحتفلون فى لبنان أو فى اليمن مثلا ؟ واذا كانوا على ضفاف النيل نزلوا ، وفى مصر غرباء فأين يكونون أصليين ؟

كما ذهب محمد فريد الى الاستانة ممثلا للحزب الوطنى للاشتراك فى احتفالات ذكرى الدستورى •

كان المصريون يحلمون أن يتخذ الحكم الجديد تأييدا لقضيتهم ضد المحتل البريطانى وأن ينالوا دستورا شأن ما حدث للدولة العثمانية • وأخذت الجرائد الوطنية تكثر من المقالات التى تنادى بإعلان الدستور والحكم النيابى • ولكن الحكم الجديد لم يشأ أن يدخل فى صراع مع انجلترا بشأن مصر بل أخذت صحيفة طنين التركية تهاجم المحمل المصرى ولم يكن قد مضى خمسة أشهر على اعلان الدستور وتدعو الى ابطال هذا المحمل لأنه على حد قولها يذكر بعهد الخلافة فى مصر ويثير الرغبة فى أن تعود اليها •

ولم تكن مصر هى التى خاب ظنها بالعهد الجديد بل كذلك العرب فى شتى اقاليمهم الخاضعة للدولة العثمانية •

وقد تناولنا فى كتابنا دراسة فى التاريخ العربى الحديث والمعاصر - للقضايا التى فجرت الخلافات بين العرب والاتحاديين •

لقد وصف رفيق العظم شعوره فى مناسبة اعلان اعادة العمل بالدستور بقوله انه لم يكن يلقى صديقا له من العثمانيين الذين

عرفوا بالميل الى الحرية الا وغلبت على كليهما عواطف السرور فانفجرت أعينها بالدمع استبشارا لمستقبل الدولة السعيد وفرحا بالحرية التي هي رغبة النفوس الحرة .

بأدر الكثير من الزعماء العرب الى الانضمام الى جمعية الاتحاد والترقي معننين ولاءهم واخلاصهم لها كما فتحت الجمعية فروعا لها في كثير من البلاد العربية في دمشق وبيروت والعراق .

لكنه لم يكد يقضى على الثورة المضادة في ٢٢ أبريل ١٩٠٩ والتي انتهت بعزل السلطان عبد الحميد الثاني وتولييه أخيه محمد رشاد باسم السلطان محمد الخامس ، حتى تنكر الاتحاديون لجمعية الأخاء العربي العثماني وأصدروا قرارا بحلها ولم يك ن قد مضى عليها ثمانية شهور .

وجاءت رسائل لمحِب الدين من صديقه رفيق العظم يقول له فيها أخبار الدولة تسوء كل محب لها ومع ذلك فرجأونا جميعا أن لا تكون حرب بينها وبين الأعداء .

وفي رسالة أخرى يبلغه بحادثة دمشق التي حدثت بشأن الاعتداء على رشيد رضا (وقد عاد الاثنان رفيق العظم ورشيد الى سوريا بعد اعلان الدستور) اثناء زيارته دمشق حيث اعتدى عليه في المسجد الأموي . وقد أفاض الشيخ رشيد رضا في وصف هذه الحادثة وعللها بأنها كانت مدبرة من الاتحاديين لأسباب تتعلق بانتخابات المبعوثان (مجلس النواب العثماني) وأن الحكومة بدأت تتدخل في الانتخابات لذا فنفس وجهاء البلدة من جمعية الاتحاد والترقي .

كما عاد الخطيب الى سوريا ورأى أن بعض السوريين الأحرار الذين كانوا يقيمون في مصر فرارا من السلطان عبد الحميد قد

عادوا الى بلدهم استبشارا بأن ينعموا فى ظل الحكم الجديد بما
حرّموا منه فى عهد هذا السلطان • عاد محمد كردعلى الى دمشق
ليصدر صحيفة المقتبس اليومية وكان يصدرها من قبل فى القاهرة
اثناء اقامته بها •

وصل محب الدين الخطيب فرأى أن الدولة تأبى الاعتراف
بجمعية النهضة العربية لأن كلمة العربية غير مرغوب فيها من رجال
الاتحاد والترقى الذين آل اليهم أمر السلطنة •

وكما كانت مصر موثلا للأحرار العرب الذين فروا من وجه
السلطان عبد الحميد الثانى ، كانت كذلك مقرا لأولئك الذين صدمهم
العهد الجديد وسياسة الاتحاديين فى الحكم •

وتطورت الأمور فى ظل حكم الاتحاد والترقى تطورا سيئا لا فى
البلاد العربية فحسب بل فى البلاد التركية أيضا وفى الاستانة
ذاتها • وصار تعصب الاتحاد والترقى للتركية وللنصرة الطورانية
مثارا لرد الفعل وانتعاش الرجعية فى عاصمة الدولة والولايات
التركية فضلا عن الولايات العربية •

فالخطيب الذى دعاه صديقه كردعلى ليعمل معه فى المقتبس
تطارده السلطات فيترك دمشق الى بيروت وعندما يحس بمن
يلحقونه من السلطات ينتهى به الأمر بالسفر الى القاهرة بعد زيارة
له قصيرة للاستانة أبحر منها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٦ الى
الاسكندرية ومنها الى القاهرة • وفى أسبوع وصوله الى القاهرة
تكلم الشيخ طاهر الجزائرى مع أحمد باشا تيمور (وكان لايزال
أحمد بك تيمور فى أن يلتحق بقلم تحرير المؤيد •

وفى فترة قصيرة من التحاقه بالمؤيد أصبح موضح ثقة الشيخ
على يوسف وفى سنة ١٩١١ اشترك مع رشيد رضا الذى عاد هو
الآخر فى فتح مكتبة باسم مكتبة المنار •

وكما كان الأحرار العرب يعملون من مصر ضد استبداد السلطان عبد الحميد عملوا منها للتصدى للاتحايين وسياستهم التي جعلت بعض المؤرخين يؤرخ للحركة العربية بأنها دخلت في طور جديد من عام ١٩١٢ حيث بدأت الحركة العربية يتخذ لها موقفا متميزا بل ومعاديا للدولة العثمانية وللاتحاد والترقي . ولقد ساهمت سياسة الاتحاديين في الوصول الى هذا الموقف الى حد كبير فسياستهم التي كانت ترمى الى عثمانة الولايات التابعة للدولة او اعمية الامبراطورية العثمانية كانت تعنى من الناحية العملية تفوق الأتراك على حساب القوميات الأخرى التي طلب اليها أن تذوب في الدولة العثمانية ثم بدأ الموقف عدائيا صريحا حين تطورت حركة الجامعة العثمانية الى حركة الطورانية وهي دعوة صريحة وعنيفة الى تفوق الجنس التركي وطمس معالم المقومات العربية الأساسية كذلك كان الفشل الدولة العثمانية في الدفاع على طرابلس الغرب أن أحس العرب بضرورة إبراز كياناتهم الخاصة المتميز ، ومن ثم ظهرت فكرة اللامركزية كأول تعبير عن ذلك الاتجاه المستقل للحركة العربية .

وتبع انتهاء الحرب الطرابلسية والصلح الذي عقد بين الدولة العثمانية وايطاليا في اكتوبر ١٩١٢ وسحب كل من الحكومة الايطالية ضباطهما وجيوشهما وموظفيهما الملكيين الأولى من طرابلس الغرب وبرقة والثانية من الجزر التي احتلتها في بحر ايجة ضد ايطاليا - تبع ذلك منشورا من السلطان الى أهالي طرابلس وبرقة يمنحهم فيها استقلالا داخليا . وكان لهذا الصلح اثره السيء على العرب فقد كان عمل الحكومة العثمانية بمثابة تسلم العرب لأعدائهم وأحس العرب أن سياسة الاتحاديين في الحكم القائمة على تمكسهم بالمركزية كانت السبب الرئيسي في ضياع الاقليم .

وما أن انتهت الحرب الطرابلسية حتى نشبت الحرب البلقانية وأذعنّت الدولة العثمانية بطلب الصلح بعد الهزيمة التي حاقت بها ونصحت الدول الأوروبية (إنجلترا ، فرنسا ، روسيا ، ألمانيا ، إيطاليا ، النمسا) الدولة العثمانية التنازل عن مدينة أدرنة للدولة البلقانية وأن تظل للدولة العظمى أمر البت في مصير بحر ايجه .

وفى هذه الظروف رأت فرنسا أن تعيد على مسامع الدولة العثمانية قصة نفوذها في سوريا وما تدعيه من حقوق تاريخية وحمايتها لبعض العناصر المسيحية وسارع رئيس وزراء فرنسا وزير خارجيتها بوانكاريه الى ارسال المدرعة جول فيري Jules Ferry الى سرقا جونية في لبنان .

وخطب في مجلس الشيوخ الفرنسي قائلا لا أرى لزوما لأن اذكر مجلس الشيوخ بأن لنا في لبنان وسوريا حقوقا تاريخية تقليدية .

وكان أحد الدوافع الهامة وراء اصدار بوانكاريه لتصريحه هو ما تراءى لعينيه من انهيار الدولة العثمانية وتفاهمه مع إنجلترا على اعترافها بمصالح فرنسا في سوريا وخوفه من أن تكون هناك دول أخرى طامعة فيها . وقد تأكد ذلك باصدار جمعية الدراسات لشتون البحرية والمستعمرات في باريس بتاريخ ٢٠ - ١١ - ١٩١٢ قرارا جاء فيه أن المجلس وقد أخذ بعين الاعتبار وجوب تأكيد مبدأ تنزه الدول الكبرى عن التوسع الأرضي ، فيما يتعلق بتركيا الآسيوية وفقا للتصريحات الأخيرة التي أدلى بها وزير خارجية فرنسا وإنجلترا وباعتبار أن بعض المطامع المصرية التي وضعت سوريا نصب عينها قد تشكل خطرا على سلامة أراضي تركيا الآسيوية ونظرا للحقوق الخاصة المعترف لفرنسا بها ، يحتج على هذه المطامع.

ويعرب عن ثقته برغبة الحكومة في الدفاع عن نفوذها ومصالحها
التي عملت فرنسا على تكوينها ويتقدم بهذا الطلب .

في حالة احتمال زوال ارتباط سوريا بالدولة العثمانية تؤكد
الحكومة الفرنسية رغبتها بعدم السماح لأى سيادة أو حماية ، عدا
سيادة وحماية فرنسا أن تحل في هذه المنطقة محل السيادة
العثمانية .

ولم تكن فرنسا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي أشيع انها
تتجه بإقطارها الى سوريا فانتشرت إشاعات عن اتجاه انظار
انجلترا الى العراق والسواحل العربية وطمع المانيا في التسرب الى
قلب الأناضول فالعراق وتطلع روسيا الى مد سيطرتها على شمال
الأناضول .

كان لابد ان يسود القلق احرار العرب ازاء المصير الذي
صارت تواجهه الدولة العثمانية . عندئذ بادر السوريون في القاهرة
الى انشاء حزب اللامركزية .

يقول رشيد رضا ان حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة
والبلاد العربية معا وكان سبب تأسيسه . . هو ما ائذنت به الحرب
البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ، وقد كنا نعتقد أن الدولة
لا يمكن أن تعيش طويلا اذا اصبحت على شل حكومتها المركزية
وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة .

ويعتبر ايلي خدوري ان حزب اللامركزية هو اهم الأحزاب
المدنية التي ألفها في القاهرة المهاجرون السوريون وكان - كما يقول -
خدوري - له اتصالات وأعضاء في سوريا .

وكان الهدف من تأسيسه أن يعمل ما وسعه الجهد فى الدفاع عن الدولة بإقامة اللامركزية • ولم يكن هناك ما يدعى لسرية تشكيله فقد تشكل فى القاهرة بعيدا عن أيدي السلطات التركية •

أما المؤسسون له فه رفیق بك العظم ، الشيخ رشيد رضا ، الدكتور شبلى شميل ، اسكندر عمون ، سامى جريدينى ، حقى العظم ، محب الدين الخطيب وغيرهم •

وقد أطلعت على وثائق هذا الحزب المحفوظة لدى المرحوم محب الدين الخطيب • عقدت جلسة خاصة للمؤسسين لاختيار مجلس إدارته • وقد ضمت أوراق الخطيب دعوة موجهة اليه من رفیق العظم بتاريخ ١٢ يناير ١٩١٣ لاختيار مجلس إدارة الحزب •

وقد تم فى هذا الاجتماع اختيار رفیق العظم رئيسا واسكندر عمون نائبا للرئيس وحقى العظم سكرتيرا ومحب الدين الخطيب مساعدا للسكرتير أما أعضاؤه التنفيذيون فهم رشيد رضا وسليم عز الدين ونعمان أبو شعر واختير للجنة المالية من الأعضاء خليل أبو أيوب وعزت الجندى وداود أبو بركات رئيس تحرير الأهرام ونجيب بشرى •

وعهد الى محب الدين الخطيب بطبع القانون الداخلى للحزب فى مطبعة المنار وأذاع الحزب عقب تشكيله بيانا قال فيه : ان 'فضل أشكال الحكومات هو الدستورى ، وأفضل أشكال الحكم الدستورى هو اللامركزى خصوصا فى الممالك التى تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات • واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراخ فيه تلك الأحوال ولم ينظر معه فى الحاجة والزمان والمكان • وأوضح البيان أهمية اللامركزية فى انها

أفضل مرب لأفراد الأمة على الاستقلال الذاتى الذى هو خير وسيلة لترقى الأمم لأن اللامركزية لا تجعل السلطة فى يد أفراد قليلين فيكونون كالمحرك فى آلة كبيرة إذا أصابه عطب أو ضعف تعطلت أجزاء مسائر الآلة عن عمل . فاللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيه من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الاتكالية حياة الاعتماد على غير النفس ، وتقسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع فى جهاد الحياة ، وعهد للشعب بلوغ غايات المدنية والتقى والعمران من أقرب سبيل وفى وقت قصير .

وعند الأستاذ الخطيب مكاتبات عديدة يطلب أصحابها الانضمام الى الحزب من السوريين المقترين فى أمريكا اللاتينية والشمالية وعن أشخاص سوريين فى جهات متفرقة وكانت الصيغة التى يقدمها العضو لطلب الانضمام الى الحزب على النحو التالى :

لمقام رئاسة حزب اللامركزية

بصفى سوري عثمانى اتقدم عن غيرى ووطنية صادقة الانضمام الى حزبكم العامل على ترقية الوطن بتخليصه آياه من التقاليد الادارية القبيمة المضيعة ، وانى حائز لكل الشروط التى يوجبها القانون الداخلى للحزب كما وانى مستعد للقيام بما يفرض على من الخدمات والمساعدات العائدة على توسيع نطاق سلطة الحزب وانتشاره لذا ترون انى فى انتظار تعليماتكم .

وظل الحزب يتسع ويمتد وينتشر ويزيد اعضاؤه . وفتح الخطيب صفحات المؤيد لنشر أخبار الحزب وبوره وأهدافه . وفى أوراقه مكاتبات جاءت اليه من حقى العظم سكرتير الحزب لنشر أخبار عن الحزب ورأيه فى الموضوعات المختلفة مثال ذلك ان حقى

العظم أرسل له فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٣ رسالة جاءته من بغداد عن
الاصلاح ويلتمس ترجمتها من التركية الى العربية ونشرها فى المؤيد
ولا يضع توقيعا ويقول فى مقدمة ما ينشره أرسل طلاب الاصلاح
فى مدينة كذا ٠٠

وكان من الطبيعى أن يخشى أعضاء الحزب على أنفسهم من
تصدى السلطات العثمانية لنشاطهم وإرسال من يقوم ضدهم بعمليات
اغتيال ٠

فقد جاءت لمحِب الدين الخطيب رسالة من حَقى العظم بتاريخ
٢١ يونيو ١٩١٤ يخبره فيها أن مدير بوليس الاستانة والذي رتب
مكيدة اغتيال فى باريس موجود الآن فى القاهرة بصورة حَقية جدا
وغير اسمه وأنه يتنقل كل يوم من فندق الى آخر لاختفاء أثره ٠٠
ولا يعلم أحد بوجوده فيها وتساءل حَقى لماذا هذا التخفى وهذا
التكتم ؟ اليس لأن الرجل نوى أن يرتب مكيدة أخرى هنا ؟ وهذه
المكيدة لا تكون الا ضد أحدنا نحن اللامركزيين لأن المعارضين
الأتراك لا يشتغلون الآن بالسياسة ولا قدرة لهم على الاشتغال بها
فالإيقاع بهم لا فائدة منه بل يضر الاتحاديين ، إذن المكيدة هى
ضدنا ولا ريب ٠ وقد أخبرنا الحكومة وسحبنا تلغراف الى الوكالة
البريطانية أمس وبلغنا المحافظة أيضا اليوم وستكتب الجرائد ٠

واحتفظ الخطيب بمحاضر مجالس إدارة الحزب فقد كان هو
الذى يتولى تدوينها ولديه مئات الوثائق عن هذا الحزب ومكاتباته
وقراراته ٠ أخذ أعضاء الحزب على عاتقهم الدفاع عن مبادئه ونشر
بياناته والظعن فى مبدأ مركزية الحكم الذى اتخذه الاتحاديون خطة
لهم والإشادة ببرنامج الحزب ٠

نصت مادته الأولى والثانية أن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية وكل ولاية من ولاياتها على أساس اللامركزية الإدارية والسلطان هو الذى يعين والى وقاضى القضاء وهذان يقومان كل فى حدود دائرته بتعيين سائر موظفى الولاية ، بعد اختيار مجلس الإدارة لهم ، ولا يجوز عزل موظف الا بحكم من مجلس تأديب .

وقضت مادته الرابعة والخامسة على أن يكون فى مركز كل ولاية مجلس عمومى ومجلس إدارة ومجلس معارف ومجلس أوقاف وتكون جميع قرارات المجلس العمومى نافذة وأعطيت للمجالس العمومية للولايات المراقبة على حكومتها والنظر فى جميع شئون الإدارة المحلية من تقرير ميزانية الدولة وأمور الأمن العام والمعارف والنافعة والأوقاف البلدية وتقرير ما يراه فيها وسن النطاقات لها . وأما ما كان من أمور النافعة يتعلق من بعض الوجوه بالأمور العسكرية أو السياسية الخارجية ، تسلك الحديد فيرفعه بعد ابداء رأيه فيه الى العاصمة .

وتضمن برنامج الحزب أن يعهد الى مجلس إدارة الولاية بوضع ميزانياتها واختيار جميع موظفيها (مادة ٧) .

وأن يتولى مجلس معارف الولاية أمور التعليم فيها وميزانيته (مادة ٨ ، ٩) ثم نظم البرنامج بعد ذلك كيفية تشكيل مجالس الولاية فقرر أن تكون بالانتخاب الا مجلس الإدارة فان نصف أعضائه ينتخبهم الشعب والنصف الآخر يكونون من رؤساء المصالح المحلية ونص على أن يكون فى كل ولاية لغتان اللغة التركية واللغة المحلية ويجب تعميم التعليم فى كل ولاية بلغة أهلها وأن يؤدى أبناء الولاية الخدمة العسكرية فى ولايتهم فى زمن السلم ، أما زمن الحرب فيترك ذلك الى نظارة الحربية فى الاستانة .

وأخذ محب الدين الخطيب ومعه رشيد رضا ينشرون في صحيفة المنار الطعن في مبدأ مركزية الحكم الذي اتخذته الاتحاديون مبيلا الى الحكم تحت شعار (توسيع المانونية) أي توسيع سلطة الولاية وكانوا بذلك كما قال رشيد يوسعون سلطة الاستبداد لأنها عبارة عن اذن المركز العام للولاية وغيرهم من الحكام الاداريين بأن يتصرفوا في بعض الأمور ، بدون اذن من وزارة الداخلية فهي تستلزم قلة المسئولية واتاحة الجراءة على الاستبداد وتوسيع السلطة الشخصية .

ويلاحظ الدارسون لبرنامج الحزب مثل توفيق برو في كتابه عن العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ان هناك انطباقا يكاد يكون تاما مع آراء البرنس صباح الدين وتمائل شبيهه بينه وبين برنامج حزب الحرية والائتلاف الذي تأسس في نوفمبر ١٩١١ .

ويؤكد صحة هذا القول اننى وجدت رسالة من رفيق العظم الى محب الدين الخطيب في ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ عندما كان الخطيب بالحديدة يبدى له رفيق تخوفه من جماعة الاتحاد والترقي بينما يبدى له ارتياحه من مسلك صباح الدين .

لكن حزب اللامركزية يزيد على حزب الحرية والائتلاف وهو الحزب المعارض لحزب الاتحاد والترقي - يكون هذا الحزب الذي تأسس في القاهرة اكثر وضوحا في تحديد حقوق العناصر وفي اعطائه صلاحيات واسعة للمجالس المحلية في ادارة شئون الولاية واعطاء مجلس الادارة حق انتقاء جميع موظفي الولاية عدا الوالى وقاضى القضاة .

يقول الدكتور محمد انيس في كتابه الدولة العثمانية والشرق العربى انه قد حدثت محاولات قبل الحرب العالمية الاولى لتجميع

القوى المبعثرة (للعرب) ممثلة فى الجمعيات المختلفة باتجاهاتها
 المتباينة . وكان من أبرز وأوضح أمثلة هذا التجمع انشاء جمعية
 أو حزب اللامركزية فى القاهرة فى أواخر عام ١٩١٢ وهو الحزب
 الذى ذابت فيه الكثير من هذه الجمعيات العربية . وكان هدف
 الحزب كما يتضح من اسمه إقامة نظام لامركزي فى حكم الولايات
 العربية داخل اطار الدولة العثمانية وتعبئة الراى العام العربى
 لتأييد هذا المطلب ، وكان على رأس هذا الحزب مجلس إدارة مكون
 من عشرين عضو يخضع لهيئة تنفيذية من ستة أعضاء وتمكنت
 الجمعية من انشاء فروع لها فى معظم المدن السورية والعراقية حتى
 أصبحت من أكبر التنظيمات المحدثنة باسم العرب ومطالبهم .
 أما سبب اختيارهم القاهرة كمركز لها فلأن مصر رغم تبعيتها
 الرسمية للدولة العثمانية كانت خاضعة من الناحية الفعلية لسلطة
 الاحتلال البريطانى وبذلك لم يكن من السهل على السلطنة العثمانية
 أن تمد يدها الى نشاط هذا الحزب المعادى . كما أن العلاقات السيئة
 بين الدولة العثمانية وانجلترا فى هذه المرحلة ترحب بهذا النشاط
 المعادى للدولة العثمانية .

كانت انجلترا قد ساءها تغلغل النفوذ الالمانى فى الدولة
 العثمانية فاذا كانت روسيا أقوى منافس لبريطانيا فى الخليج فى
 السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر فقد أصبحت المانيا ذلك
 المنافس الخطير فى السنوات الأولى من القرن العشرين . وإذا كان
 وصول المانيا الى تركيا الآسيوية والخليج ظاهره نشاط اقتصادى
 لبناء خط حديدى عبر الأناضول الى الخليج ، إلا أنه كان من الواضح
 الاطماع السياسية وراء ذلك النشاط . وإذا كان النشاط الالمانى من
 قبل ينحصر حتى سنة ١٨٧٠ فى نشاط بعثات دينية بروتستانتية فى
 الشام مع جانب بسيط من التجارة لى نفوذ سياسى أو اقتصادى

فانه بانتصار المانيا فى عام ١٨٧١ اكسبها مركزا كبيرا فى نظر الأتراك الذين كان من دأبهم احترام القوة . وكانت الخطوات التى خطتها بريطانيا للانفراد بالنفوذ بالخليج من شأنه إثارة السلطان واعتباره اعتداء على نفوذه فى سواحل الخليج . وقد وضع تغير موقف السلطان عبد الحميد الثانى من بريطانيا بعد احتلالها لمصر الذى اعتبره اعتداء صارخا على ممتلكاته والتى بدأ يواجه هذا النشاط البريطانى وغيره من الدول الأوربية بتدعيم فكرة الجامعة الاسلامية . واستعان بالألمان فى تنظيم جيشه على يد القائد الالمانى جولتز Goltz . ورحبت الدولة العثمانية بالمصادقة الالمانية بعد مؤتمر برلين وقد صارت فى أزمة اقتصادية وفى حاجة الى إعادة تنظيم جيشها فوجدت ترحيبا بذلك من المانيا وفى الوقت الذى أحجمت الكثير من البيوت المالية البريطانية عن تمويل المشروعات الإصلاحية فى الدولة العثمانية ، بادرت المانيا الى التغلغل الاقتصادى فى الدولة العثمانية ووجدت فى هذه الدولة سوقا لتصريف منتجاتها . وكان من أبرز هذه الأنشطة مشروع سكة حديد بغداد ، بل أن بعض المؤرخين يرى أنه ضمن الأسباب لتوقيع الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ هو التفرغ لمواجهة الخطر الالمانى . وكانت المانيا قد نظرت الى الكويت باعتباره النهاية الملائمة للخط الحديدى وأوصت بعثات المسح الالمانى باتخاذ الكويت نهاية للخط المقترح وكان ذلك من أسباب اسراع بريطانيا الى الاتفاق مع الشيخ مبارك على عدم الاتفاق مع أى دولة أخرى غير بريطانيا قبل الحصول على موافقة المقيم البريطانى فى الخليج . وحاول السلطان عبد الحميد بضغط من المانيا أن يرغم الشيخ على الاعتراف بتبعيته الى الدولة العثمانية بأرسال حملة الى الكويت ولكن الحكومة البريطانية قابلت هذا العمل بأرسال مدرعة حربية ووجهت الى الباب العالى انذارا بأن نفوذه قد زال من هذه المنطقة .

وعندما طلبت المانيا من الشيخ مبارك أن يعطيها مركزا في الكاظمة على رأس خليج الكويت ، رفض الشيخ مبارك أن يعطيها له نظرا لتوقيعه اتفاقية ١٨٩٩ مع الحكومة البريطانية ثم استقر رأى بريطانيا آخر الأمر أن تحول بين تنفيذ الخط الحديدي من بغداد الى الخليج الا اذا كان ذلك تحت سيطرتها وهو الأمر الذي انتهى أخيرا بمشروع اتفاق مع بريطانيا في ١٧ يوليو ١٩١٤ كان أهم ما تضمنه اعلان شركة خط حديد بغداد عن عدم مد الخط الحديدي من البصرة الى الخليج وأن لا تأخذ المانيا ميناء أو محطة لسكة حديد في الخليج دون موافقة الحكومة البريطانية •

واذا كان النفوذ الالمانى قد بدأ يتغلغل على هذا النحو فى عهد السلطان عبد الحميد فانه قد زاد بدرجة كبيرة على عهد الاتحاديين • وكان ذلك من شأنه اغصاب بريطانيا واحتضانها للحركة العربية وتشجيعها للداعين الى حزب اللامركزية على الأرض المصرية •

ولقد لعب هذا الحزب دورا رئيسيا فى عقد المؤتمر العربى الأول فى باريس • وقد سبق أن اشرنا الى مطامع فرنسا فى سوريا وتصريحات بونكاريه رئيس وزرائها ووزير خارجيتها حول ذلك بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب البلقانية • ومن المعروف ان فرنسا سعت بعد اتفاقها الودى مع انجلترا سنة ١٩٠٤ الى ذلك الاتفاق الروسى البريطانى سنة ١٩٠٧ والذى نظرت اليه المانيا على أنه احكام لحلقة تطوقه بها المانيا • وأصبحت أوروبا منقسمة الى كتلتين على النحو الذى دخلت به أوروبا الحرب العالمية الأولى • ومن هنا كانت باريس شأنها شأن القاهرة مقرا للنشاط العربى المعادى للدولة العثمانية • وجاءت فكرة المؤتمر العربى الأول على يد خمسة من الشباب العربى فى باريس هم عبد الغنى العريسى ، محمد الحمصانى ، توفيق فايد ، جميل مردم ، عونى عبد الهادى وجميعهم

من أعضاء الجمعية العربية الفتاة قضموا بعض الشخصيات العربية المعروفة في باريس مثل شكرى غانم وندرة مطران ، واتصلوا بغيرهم من أبناء الجالية العربية فيها فوجدوا منهم استجابة واستحسانا للفكرة وسرعان ما جرى انتخاب لجنة من هذه الجالية العربية للأعداد للمؤتمر وكان أول ما أقيمت عليه لجنة إعداد المؤتمر التي عهدت بأمانة سرها الى عبد الغنى العريسي أن ترتبط بحزب اللامركزية في مصر . وقد أشرنا الى تفاصيل هذا المؤتمر ووثائقه في كتابنا عن محب الدين الخطيب فقد وجدت في أوراقه سجلا لأعمال هذا المؤتمر وأصدر كتابا باسم المؤتمر العربي الأول .

والمعروف أن فرنسا رحبت بعقد هذا المؤتمر على أرضها وعندما سئل عبد الحميد الزاهرأوى رئيس المؤتمر عن سبب عقد المؤتمر في فرنسا أجاب على هذا السؤال الذى وجه له مراسل جريدة الطان Temps الفرنسية بقوله أن حوادث بيروت الأخيرة (مشيرا الى ما حدث في بيروت من جانب السلطات التركية بتصفديها للاضطراب الذى عم المدينة اثر حل جمعية بيروت الاصلاحية) قد برهنت على قدر الحرية التى يمكن ان يتمتع بها مؤتمر يعقد في سوريا ولأن المؤتمرين يودون اسماع مطالبهم وافهام رايهم لأوربا التى تزداد أهمية مصالحها في البلاد العثمانية يوما بعد يوم .

اعطت فرنسا المؤتمرين قاعة الجمعية الجغرافية بباريس لعقد مؤتمرهم وحضر عدد من المسئولين الفرنسيين جلسان المؤتمر .

وبعد أن ختم المؤتمر جلساته توجه وقد برئاسة عبد الحميد الزاهرأوى الى وزارة الخارجية الفرنسية في ٣٠ - ٦ - ١٩١٣

وصدرت الصحف الفرنسية مشيرة الى مقابلة بيشون وزير خارجية فرنسا للوفد وبعد ان شكره الزمراوى على ما لقيه المؤتمر من ترحيب الامة الفرنسية قال : اذا كنا نستحق هذا الاكرام بصفتنا ابناء دولة صديقة لفرنسا من قديم الزمان ، فاننا نستحقه ايضا بصفتنا سكان بلاد مازالت فرنسا تظهر نحوها كل انعطاف وتودد واننا اعتمادا على هذا وذلك نعتقد ان فرنسا وكل أوروبا تمد لنا يد المعونة فى تحقيق الاصلاح الذى وعدتنا دولتنا العثمانية باجرائه . وان الاتحاد والأخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة وبين السوريين واللبنانيين من جهة أخرى هى اعظم برهان على ارتباطنا وكفاءتنا لادارة اعمالنا على استعانتنا بتجارب أوروبا ، واستغلالنا بظلال الراية العثمانية . لهذا نحن واثقون ان أوروبا لابد ان تكون صاغية بارتياح الى مطالبنا الاصلاحية النافعة .

ورد بيشون بكلمة شكر فيها الوفد وأكد ان فرنسا تحب الخير للسوريين وأن فرنسا ستظل مدافعة على حقوق سوريا لدى أوروبا وانها تفعل ذلك خدمة للدولة العثمانية لا ضدها .

كان واضحا ان فرنسا تريد ان تحتضن هذه الحركة العربية على أرضها لا حبا فى هذه الحركة ولكن خدمة لمصالحها وأهدافها . يقول الأستاذ ساطع الحصرى فى كتابه نشوء الفكرة القومية ان الحكومة التركية نشرت بعض الوثائق التى جاء فيها أن وزير خارجية فرنسا كتب الى قناصله يقول ان الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ، ولذلك يجب عليكم ان تتظاهروا بمساعدتها لكى تكسبوا قلوب الأهلىين ، على ان تسعوا فى الخفاء للقضاء عليها ، وان سبب ذلك كان ايضا من منظمى المؤتمر له ان السوريين ، مع احترامهم لفرنسا لا يرضون ان يكون الفرنسيون رؤساء عليهم بل جل ما هنالك انهم يطلبون معاونتهم فى اصلاح احوالهم بشرط ان

**بيقوا عثمانيين اذ ليس صحيحا ان السوريين يفتحون صدورهم
لفرنسا .**

وهذا هو الذى يجعلنا دائما نؤكد ان فكرة الاستقلال التام عن الدولة العثمانية لم تراود رواد الحركة العربية حتى قيام الحرب العالمية الاولى وكل ما كانوا يطمعون فيه الاصلاح اللامركزى وهذا لا يمنع من شك الدولة العثمانية فى ان عقد المؤتمر فى فرنسا كان قواطع بين العرب والفرنسيين . قال جمال باشا فى مذكراته وبهذه الطريقة وتحت الرعاية الفرنسية شكل المؤتمر دستوره واستقر فى الاذهان وقتئذ ان تداخل فرنسا فى سوريا اصبح قريبا .

يقول الأستاذ توفيق برو فى كتابه العرب والترك فى العهد الدستوري العثماني ان الذى يمعن النظر فى هذه المسألة يجد ان العرب كانوا مضطرين الى ان يخطو هذه الخطوة وقد بسط الزهراوى تعذر عقد هذا المؤتمر فى الأراضى العثمانية بعد حوادث بيروت وقد اعترف بذلك جمال باشا نفسه بقوله : ثم ارادوا عقد مؤتمر من العرب بالرغم من رفض الحكومة ولكن لما توقعوا ان تحول الحكومة هذه المرة بينهم وبين رغبتهم وتتخذ الاجراءات القانونية ضد زعمائهم ، قرروا ، بعد موافقة - او بالأحرى بعد اغراء الحكومة الفرنسية - ان يجتمع المؤتمر فى باريس . فاذا علمنا ان الاستانة وبيروت كانتا ترزخان تحت الأحكام العرفية . . لم يكن امام منظمى المؤتمر والحالة هذه ان يعقدوه اما فى مصر او فى احدى البلدان الأوربية . كان من الأفضل لهم لو عقدوه فى القاهرة ولكن الحجة التى كان سيتزعم بها الترك هى نفس الحجة لمحاربته اذا انهم كانوا فى تلك الحالة سيقولون ان انجلترا هى الدافعة لعقده وأن سوريا تريد ان تنضم لمصر . ذلك انهم كانوا منذ السنة الثانية للثورة (ثورة الاتحاد والترقى ١٩٠٨) يتهمون السوريين

بذلك ويقولون بأن مصر فتحت صدرها لعزت باشا العابد الذي اشترى هو والخديو معظم أسهم جريدة المؤيد وجنداه لمحاربة الدولة العثمانية ، وإن عزت باشا يقيم في قصر الدوبارة ويعمل على انتزاع سوريا من حكم الترك والسير بها الى الاستقلال أو اللاحاق بمصر وإن صلاته قد توثقت بالخديو وما الى ذلك من التلفيقات التي انبرت المؤيد والزعماء العرب الى نفيها • ومما يدل على خوف الترك من علاقة السوريين بمصر انهم اعتبروا حزب اللامركزية خائن للوطن وجعلوا الانتساب اليه فيما بعد ، من التهم الرئيسية لارسال رجالات العرب الى المشانق • وكانت الوصمة التي ألحقوها بحزب اللامركزية قائمة على علاقته بالحكومة المصرية والعمل بفصل سوريا عن الدولة • وقد أوضح الزهراوي سبب عقد المؤتمر في باريس أن فيها أكبر جالية عربية ولكننا نتفق مع الأستاذ بروقي أن الهدف من عقده في باريس كان الاستظهار بالدول الأوروبية كي تضغط على الدولة العثمانية في تحقيق الإصلاحات التي ينشدها العرب • والدليل على ذلك عندما سأل أحد من الحاضرين عن القصد من ابلاغ قرارات المؤتمر للدول أجاب نذرة مطران « أن الأرمن يبلغون دائماً مطالبهم الى الدول المتحابة مع الدولة والمقصود من ذلك استبعاد كلمة خير منهم للحكومة العثمانية في اعطائنا الإصلاحات ثم عقب الزهراوي على ذلك بقوله وأنا أزيد على ذلك أن بيننا وبين الدول ارتباطاً هو أعظم مما نتصوره ، ونحن اذا اطلعنا الدول العظمى على ما يطلبه جزء عظيم من سكان المملكة يكون ذلك خيراً من عدم اطلعنا أياها عليه ، قصدق الحاضرون على ذلك •

أما موقف حزب اللامركزية بين مؤتمر باريس وما أسفر عنه من قرارات فقد أشرنا الى ذلك في حديثنا عن الوثائق التي احتفظ بها المرحوم الخطيب عن هذا الحزب • تبع انعقاد مؤتمر باريس مفاوضة

الاتحاديين لأعضاء المؤتمر وصدرت الإرادة السلطانية بالاصلاحيات التي جاءت أقل من الشروط المتفق عليها في المؤتمر . ازاء ذلك لم يسع حزب اللامركزية السكوت فأصدر بياناً الى الشعب العربي في ٩ أكتوبر ١٩١٢ شرح فيه حاجة الأمة الى اللامركزية وعدد فوائدها . . . وبين كيف ان الحزب رضى بشروط اتفاقية باريس مع كونها دون برنامج الحزب ثم كيف صدرت الإرادة السنوية وهي ايضا أقل من الشروط المتفق عليها بل كانت صورة مشوهة عنها . وفي ٤ يناير ١٩١٤ صدرت الإرادة السنوية بتعيين الزهراوى وسبعة آخرين من العرب في مجلس الأعيان ولعل أهم ما قام به بعض رجال الحزب في هذه الفترة هو محاولة راب الصرع الذي أحاط به ازاء هذا الأمر .

عقد الحزب جلسة في ٢٢ يناير ١٩١٤ وانقسم الرأي ما بين مؤيد لتعيين الزهراوى وصحبه في مجلس الأعيان وما بين معارض على أساس اعتبار ذلك رشوة من الحكومة العثمانية حتى يكف العرب عن دعاوى الإصلاح وقرأ رشيد رضا رسالة جاءت من الزهراوى انه لم يقبل هذا المنصب الا بقصد الاصرار على المطالبة بالاصلاح الذي يطلبه العرب وانه وافق ان السيد الزهراوى يترك متصبه قطعاً اذا ظهر ان تركه خير لأمتة ثم قال رشيد رضا لأعضاء الحزب في اجتماعهم انه يرى ان رأس مال نجاح الأحزاب هو الثقة بالرجال العاملين والتمس منهم الثقة بالزهراوى .

لكن الأزمة لم تنته فمضى سكرتير الحزب في تهجمه على الزهراوى فقرر الحزب ان يستدعى الزهراوى من الاستانة وأن يعقد جلسة لدراسة الموقف . وعقد الحزب جلسة في مساء يوم الجمعة ٢٤ ابريل ١٩١٤ اشتم فيها الموقف وظهرت الأزمة بصورة عنيفة فاقترح رفيق العظم رئيس الحزب حل اللجنة المركزية للحزب وهو

الأمر الذى يتبعه حل الحزب • ودعا حقى العظم الى مضاعفة الحزب لنشاطه حتى تشعر الجماهير بنشاط الحزب ويستعيد مكانته بعد موقفه من الزهاوى وكان رأيه • اما ان نعمل وننشط أو نحل الحزب •

واقترح رشيد دعوة مؤتمر الحزب وفروعه ولكن الخلاف بين رفيق العظم رئيس الحزب وسكرتيه حقى العظم لم تنته وانما ازدادت تعقيدا ، ووضح التصدع فى الحزب وجرى التفكير فى مؤتمر ثان فى القاهرة على غرار مؤتمر باريس ولكن دهمت الحرب العالمية الأولى العالم بعد ذلك بفترة قصيرة وعندها دخلت الحركة العربية فى طور آخر •

ويدخل فى باب التحرك العربى على الأرض المصرية ما قامت به الجالية السورية فى القاهرة ازاء محاكمة عزيز المصرى الذى قدم للمحاكمة فى الاستانة فقد أخذت صحيفة المنار تنشر المقالات التى تلند بذلك (انظر كتابنا عن عزيز المصرى والحركة العربية) ومثال ذلك المقال الذى نشر فى عددها الصادر فى ٢٧ مارس ١٩١٤ والذى أوضح الأثر السيئ فى مصر وسوريا وغيرها من البلاد العربية وعندما دعا شيخ الجامع الأزهر فى مصر الى اجتماع للتشاور فيما يجب اتخاذه كان من أول الخطباء رفيق العظم ورشيد رضا الذى لخص فى عدد صحيفته المنار ما قاله فى هذا الاجتماع • وأما صحيفة التيمس فقد صدرت أعداد منها بأخبار اعتقال عزيز المصرى ومحاكمته ويدل هذا على أن التحرك العربى من الأشقاء السوريين كان بتشجيع من بريطانيا هو الآخر اهرجا للحكومة التركية •

لقد أشرنا فى كتابنا عن عزيز المصرى الى تلك المقالات فى صحيفة التيمس منها الى جانب المقال المشار اليه سابقا مقالات

عدة أخرى بتاريخ ١١ ابريل ١٩١٤ تحت عنوان رجاء المصريين بالنسبة للمصرى وفى عدد ١٥ ابريل ظهر عنوان بارز آخر تحت عنوان الحكم على عزيز المصرى وتحت عنوان آخر : غضب مصرى ضد تركيا كما نشرت تلك الصحيفة البريطانية فى عدد ٢٤ ابريل ١٩١٤ خبر الافراج عنه وتفاصيل عن المحاكمة العسكرية .

وقد تناول كتابنا عن محب الدين الخطيب دوره فى كتابه المقالات فى صحيفة المؤيد عندنا بهذا العمل مثال ذلك مقاله بتاريخ ٢٢ ابريل ١٩١٤ بعنوان عزيز المصرى درس مؤلم وعبرة مرة وبداها بقوله :

جزاء ستمار جزائى على الهوى

وكان يمينى وفساء السـمـوئل

وتشكلت من محب الدين الخطيب ورفيق العظم لجنة وجهت الدعوة الى العديد من الشخصيات فى مصر للنظر فى اتخاذ التدابير اللازمة بشأن الحكم الصادر على عزيز المصرى . وتقرر تأليف وفد للذهاب الى الوكالة البريطانية وادارات الصحف عربية وفرنسية لطلب مساعدتها وارسال البرقيات الى الصحف الأوربية وطلب معونتها وبرقية للسلطان العثمانى وملك انجلترا . كما تقرر ارسال برقية للتمس وشكرها على كتاباتها واستلفات نظر الشعب الانجليزى الى ان الشهود على عزيز كلهم اسافل متهمون بجرائم ويعرفهم المصريون الذين كانوا فى الحرب الطرابلسية وأن الذين ابوا الشهادة اؤذوا وطردوا من الجيش . واشترك الخطيب وغيره من أبناء الشام فى تنظيم الاحتفال الذى اعد لاستقبال عزيز المصرى بعد الافراج عنه . خلال ذلك كان الخطيب يصدر منشوراته التى تبث الحماس فى نفوس أبناء امته العربية منها تلك العناوين الى الأمة العربية ،

الوطن في خطر - نحن الآن في شقاء - البلاد فرغت من الرجال ومن النفوذ - قدمنا اولادنا للمسكرية واموالنا للاستانة لأجل ان ترقى الدولة فكان ارتقاؤها الى أسفل . ويقول « والآن امسينا وبيتنا وبين رجال الاستانة سوء تفاهم نحن نعتقد انهم اخواننا وهم في الظاهر يضحكون علينا ، وفي الواقع يرون اننا عبيدهم وأن لهم أن يمنعونا حقوقا وهبها الله . وأن يخرسوا السنة انطقها الله . وأن يعصروا من بلادنا خيراتها فيسرقوا بها جوف الاستانة التي لا يمتلئ بطون رجالها التي لا تشبع .

ومع بدء الحرب العالمية الأولى وانقسام الدول المتحاربة الى كتلتين احدهما تضم المانيا والنمسا والمجر والأخرى تضم انجلترا وفرنسا وروسيا ولم تدخلها الدولة العثمانية مع بدئها الا أنه كان معروفا أن النفوذ الالمانى وقد تغلغل في هذه الدولة سوف يجرها الى صف الالمان .

وكان رجال الحركة العربية في مصر يودون لو أن الدولة وقفت على الحياد في هذه الحرب . يقول الخطيب في أوراقه : كنا نتمنى لو أنها (الدولة العثمانية) حافظت على الحياد فلم تكن مع أى فريق لتجنب البلاد ويلات الحرب من جهة ، ولأننا وهذا مهم جدا وأحب أن أسجله كنا نرى أن القومية العربية في دور المخاض ، وإنها لم تولد بعد ، وأنها تحتاج الى مدة أخرى طويلة لتستطيع أن تحبو ثم أن تقف على قدميها .

ويعضى الخطيب يوضح انه لم يكن في العرب المسلمين عاقل واحد يفكر في الانفصال من الدولة العثمانية قبل أن يتم استعدادهم لهذا الانفصال لكنهم كانوا يرون أن تعترف لهم الدولة بحق العرب في الحياة فيكون التعليم في الولايات العربية باللغة العربية وأن

يمثل العرب تمثيلا صادقا فى الوزارة ومجلس الاعيان وسائر
المرافق . هنا ما كانوا يحاولون اقناع الاتحاد والترقى به بعد
المؤتمر العربى الأول فى المحادثات التى كان يقوم به الزهراوى من
جانب وعبد الكريم خليل من جانب آخر وكل من اتاحت له فرصة
الاتصال بالترك مثل سليمان البستاني الذى كان وزيرا للزراعة .

كذلك كان من رجال العربية الفتاة من يرى نفس الرأى الذى
ارتأه أعضاء اللامركزية فى القاهرة كانت الآراء متفقة ومتلاقية على
أن مصلحة العالم الاسلامى والأقطار العربية ، فى ملحمة الحرب
العالمية الأولى هى الوقوف على الحياد ، وترك الفريقين المتنازعين
على استعمار الأرض واستبعاد الأمم يحطم بعضهم بعضا .

كتب أحمد مختار بيهم أحد زعماء بيروت الاصلاحيين وعضو
مؤتمر باريس العربى الأول فى ٢٦ أكتوبر ١٩١٤ أى قبل ايام معدودة
من دخول الدولة العثمانية الحرب يقول « الغينا أحزابنا السياسية
وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضى ذلك
وسوف يرى اخواننا الترك ولاسيما الاتحاديون من أعمالنا فى هذه
الحرب ما يظهر لهم عظيم اخلاصنا للعرش العثمانى وتفانينا فى
خدمة الوطن المشترك .

ويرسل رشيد رسائل الى من يثق بهم فى سوريا يحثهم على
الولاء للحكومة ونشر فى جريدة الأهرام ٢٦ سبتمبر ١٩١٤ خطايا
عاما نشر خلاصته فى المنار ليكون وثيقة تاريخية بعد أن منعت
الحكومة العثمانية دخول الجرائد المصرية وفى هذه الرسالة يشكر
رشيد رضا السوريين على اخلاصهم وطاعتهم للدولة وكفهم عن
طلب الاصلاح وتقديرا لأحوالها الحاضرة ويقول لهم حتى انكم
ساهمتهم فى هذا أرقى أمم الأرض التى سكنت عن جميع مطالبها
ومنازعاتها الداخلية .

وهكذا كان الرأي الغالب لرأى رجال الأحزاب والجمعيات العربية سواء العربية الفتاة أو اللامركزية هو تصفية الحساب مع الدولة العثمانية فى هذه الحرب •

كان حزب اللامركزية فى مصر يرى ضرورة تجنب دخول الدولة العثمانية الحرب لأنها على حد قول رفيق العظيم (رئيس الصرب) لو دخلت (الدولة) فى هذه الحرب كانت نهاية أجلها ولاسيما اذا تحقق النصر لانتجلاً وفرنسا وروسيا واندفعت اطماع الروس وغيرهم من الحلفاء لحل بالنسبة للمصالح الشرقية •

وطالب الحزب من فروعه موافاته بعدد القوة الموجودة عنده وما هى المساعدة المادية التى يمكن للفروع أن تقدمها للمركز العام وقال الحزب فى بيانه • علينا معشر العرب أن نفكر من الآن فى الوسائط التى تقى استقلالنا من الزوال • وعن الواجب المقدس لحزبنا الذى له نوع من التشكيلات وكل أفرادها من أهل الوطنية الصادقة والغيرة على الوطن والحرص على سلامة الاستقلال أن يكون فى مقدمة المفكرين فى هذا الأمر العامل على اتخاذ الوسائط الناجمة لسلامة الوطن وحياة بنيه •

وكان رشيد رضا قد أسس فى القاهرة حزبا باسم حزب الجامعة العربية بعد اعلان المشروطية الثانية وذهابه الى دمشق وماحدث من اعتداء عليه فى المسجد الأموى ووصفه لهذه الحادثة بأنها كانت فتنة مدبرة لأسباب تتعلق بانتخابات المبعوثان ، وأن الحكومة بدأت تتدخل فى حرية الانتخابات لذلك امتنع وجهاه البلدة من جمعية الاتحاد والترقى • عندما عاد رشيد رضا أسس هذا الحزب الذى اسماه حزب الجامعة العربية وكان حزبا سريا ذكر رشيد فى المقدمة التى كتبها لآثار رفيق العظم أن هذه الجمعية

أسست للتأليف بين أمراء جزيرة العرب والتعاون والاتفاق بين الجمعيات السياسية التي انشئت في الولايات العربية وفي الاستانة لمقاومة الاتحاديين وضغطهم على العرب ولحفظ حقوق العرب في الدولة والعمل لمستقبلهم .

رأى رشيد آفة العرب في تفرقهم « فرأى المؤسسون أن قوة العرب في جزيرتهم وأنه لا يمكن الانتفاع بها الا بتأسيس اتحاد حلفي يجمع بين أمرائها » ، ومن ثم حين أعلنت الحرب رأى رشيد أن يوفد محب الدين الخطيب في مهمة سرية الى الجزيرة العربية لاستطلاع بعض آراء الجزيرة العربية الى خطر الفرقة والانقسام وعليهم أن ينتهزوا الفرصة الحاضرة التي انشغلت فيها جميع الدول الكبرى بانفسها ويلموا شملهم ويعاون بعضهم بعضا على الوحدة والتعاون والاستعداد لحفظ سلطنة الاسلام من الزوال على حسب القواعد التي وضعتها جمعية الجامعة العربية ويثا في جميع البلاد . وافضلهم من بدا بمد يده لمصافحة غيره وعماهده على ذلك .

كانت الخطة التي رسمت بالنسبة لسفر محب الدين الخطيب أن يصل الى البصرة للاجتماع مع السيد طالب النقيب الذي كان على اتصال بالمراسلة مع حزب اللامركزية للتفاوض معه فيما يهم العرب ثم يسافر الى بن السعود وكان من المقرر ايقاد غيره الى الامام يحيى وثالث الى الشريف حسين ورابع الى الادريسي في عسير لتجميع آراء العرب ورسم خطة يوافق عليها الجميع .

وسافر محب - على نحو ما اوضحنا في كتابنا عنه على ظهر باخرة ايطالية من السويس يوم ٢٦ أكتوبر قبل أيام قلائل من دخول الدولة العثمانية الحرب سافر الخطيب من السويس الى بومباي ومنها الى بوشهر في طريقه الى البصرة . لكن السلطات البريطانية

هناك اعتقلته ونقلته الى المحمرة ثم البصرة حيث أودع السجن ولم
تفرج عنه الا بعد توسط رشيد رضا في القاهرة لدى السلطات
البريطانية التي أبرقت الى الجهات البريطانية هناك للافراج عنه ولم
تتح له أن يقوم بمهمته •

وكان لدخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب الالمان من
شانه أن تأخذ الحركة العربية معه مسار آخر •

الفصل الرابع

موقف مصر من القضايا العربية

لعل أهم ما ينبغي الإشارة إليه في هذه الفترة موضوع الدراسة
أي حتى قيام الحرب العالمية الأولى هو الموقف الذي وقفته مصر
من الاحتلال الإيطالي لطرابلس الغرب ١٩١١ •

وأهمية هذه القضية إنها جاءت في موقف كانت الحركة
العربية قد بدأ يشتد عودها ويقوى بفضل سياسة الاتحاديين والنزعة
الطورانية التي اصطبغت بها سياستهم ، الأمر الذي كان من شأنه
أحداث كثير من الخلاف بينهم وبين العرب •

وقد قلنا في كتابنا دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر
أن قضية العدوان الإيطالي على طرابلس الغرب كان من القضايا
محل الصراع بين العرب والاتحاديين • فقد قدم نواب طرابلس إلى
مجلس المبعوثان تقريراً مفصلاً ذكروا فيه براهين عدة على تهاون
الحكومة في أعداد وسائل للدفاع عن تلك الولاية النائية ومن ثم
حملوا الدولة العثمانية مسؤولية الاحتلال الإيطالي بطرابلس الغرب
ذلك أنه لم يكن فيها من وسائل الدفاع ما يمكن به صد العدوان

الايطالى فقد كانت يحكم وقوعها بين مصر المحتلة من الانجليز وبين تونس المحتلة من الفرنسيين - شبه معزولة عن باقى الدولة العثمانية وكان الاتصال بينها وبين عاصمة الدولة لا يتم الا بالطرق البحرية ولم يكن هناك خط ملاحى مباشر بينها وبين الاستانة وكان الانتقال اليها يتم على الخطوط الملاحية الأجنبية الغير مباشرة وعلى سفن أجنبية وكانت بسبب ذلك تعد منفى للموظفين المغضوب عليهم فى الدولة العثمانية .

ولن نتناول فى هذا الفصل قصة العدوان الايطالى على هذا الاقليم العربى فقد تناولنا ذلك فى كتابنا عن عزيز المصرى والحركة العربية لكننا نود أن نشير الى موقف مصر من هذه القضية التى مثلت عدوانا أوربيا صارخا على ولاية عربية مجاورة لها .

وفى المذكرة التى قدمها المرحوم الأستاذ د / مصطفى عامر بعنوان الصلات الجغرافية بين مصر وليبيا والتى كلفته جامعة الدول العربية أن يعدها خلال سعيها لحصول ليبيا على استقلالها ووحدها بعد الحرب العالمية الثانية والتى نشرها المرحوم د . محمد فؤاد شكرى فى كتابه من دولة ليبيا الحديثة الجزء الأول المجلد الأول دراسة مستفيضة لهذه الروابط الجغرافية بين كل من مصر وليبيا فهناك وحدة الاقليم الجغرافية حيث يكاد يكون الاقليم الممتد من غرب الدلتا الى حدود تونس واحدا فى خصائصه الجغرافية فهو بوجه عام متجانس فى صفاته الطبيعية وفى مميزاته البشرية كما أنه يختلف اختلافا تاما عن الاقليم الذى يقع غربه والممتد من تونس الى مراكش وهو الاقليم المعروف ببلاد المغرب أو بلاد الأطلسى . ثم انتقلت المذكرة لتوضح الروابط التاريخية بين سكان مصر وليبيا منذ عهد ما قبل الأسرات ثم انتقلت المذكرة لتذكر تحت عنوان وحدة الجنس والثقافة والدين أنه نشأ عن الاختلاط بين

المصريين والليبيين من قديم الزمان أن أصبح سكان غرب الدلتا والصحراء الغربية لا يختلفون عن سكان ليبيا نفسها . وقد ساعدت هجرات القبائل العربية الى كل من مصر وليبيا على توحيد الاقليمين الى حد بعيد وعلى توطيد اركان العسروية الحقبة في كل منها فلا توجد فيها لغة تتنافس اللغة العربية ولا دين يتنافس الدين الاسلامي ولا عادات اجنبية تتنافس العادات العربية .

واذا كان العرب قد سكنوا الاقليم منذ القرن السابع بعد الميلاد فان هجرات عربية جديدة واسعة المدى قد وصلت الى ليبيا في القرن الحادى عشر ، وذلك عندما هجرت قبائل بنى ملال وبنى سليم الى مصر ثم الى برقة . . وفى الجملة يمكن ان نقول من طرابلس الى الاسكندرية يوجد شعب واحد والبعض منه الذى يسكن ارض مصر يشبه بدو ليبيا ولا يشبه فلاحى مصر .

كما اوضحت المذكرة الصلات الاجتماعية والاقتصادية فحياة القبائل فى ليبيا كحياتها فى مريوط مرتبطة بالرعى حيث هناك عدة طرق تربط مصر بليبيا فهناك الى جانب الطريق الساحلى الطريق من الدلتا الى وادى النطرون وواحة سيوة الى جغبوب وأوجلة والطرق الأخر من وادى النيل الى الواحة البحرية وواحة الفرافرة فى مصر ثم الى الكفرة ثم اوضحت الصلات الحربية بالقول ان حدود مصر الغربية كانت فى كل العصور حدودا ضعيفة للغاية ليس فيها من العقبات مايمكن ان يقف فى سبيل الهجرات ولا فى طريق الغزاة والغاتحين . ولقد تأثرت مصر بغزوات الليبيين فى عهد الفراعنة كما تأثرت فى عهود مختلفة بهجرات واسعة من البدو الساكنين فى غرب الأراضى المصرية وتكرر هذا التهديد الحربى لأمن مصر وسلامتها فى القرن العاشر بعد الميلاد وذلك عندما غزاها الفاطميون اتين من الغرب . ومضت المذكرة توضح وصول

المنفوسيين الى سيدى برانى ومرسى مطروح فى سنة ١٩١٥ فى الحرب العالمية الاولى . ثم كانت الحرب العالمية الثانية وجاء التهديد لمصر مرة اخرى من ناحية الغرب وفى هذه المرة على ايدى الايطاليين والالمان وانتهت الى ان مستقبل ليبيا السياسى يهم مصر اكثر مما يهم أية دولة اخرى لأن ليبيا تجاور مصر .

أريت بالإشارة الى هذه المذكرة توضيح مدى الصلات المختلفة التى تربط مصر بذلك الاقليم من اقاليم الدولة العثمانية ومن ثم نعرف على موقف مصر من هذا العدوان الايطالى .

يقوم المرجوم د / محمد حسين هيكلى فى كتابه مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الأول فى هذا الصيف صيف ١٩١١ ، وقع حادث دولى كان له فى مصر صدى عظيم ، وفى السياسة المصرية اثر بالغ . فقد أعلنت ايطاليا الحرب على تركيا فى برقة وفى طرابلس الغرب . وكانتا ولايتين تركيتين تحكمهما السلطة العثمانية حكما مباشرا . ما عسى أن يكون موقف مصر من هذه الحرب ؟ انها داخلة فى نطاق السيادة التركية مع تمتعها بالاستقلال الداخلى . افسير قواتها المسلحة الى جانب القوات التركية للدفاع عن هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية ؟ أم تقف على الحياد أن ليس لها من وراء هذه الحرب مخم ؟ وإذا وقفت على الحياد وأرادت الجيوش العثمانية أن تمر بأراضيها . فماذا يكون موقفها . اتمنع هذه الجيوش من المرور بحجة حيادها حتى لا تتعرض لعمل عدائى من جانب ايطاليا ، أم تقتضيها بتبعيةها الاسمية للسلطان العثمانى أن تفسح الطريق لهذه الجيوش من غير أن تخرج من هذا الحياد ؟ وانجلترا ما موقفها وهى ممثلة مصر ؟ هل تسهل للجندود التركية المرور ، أم تقف فى طريقها تصدها أن هى حاولت هذا المرور ؟

والحقيقة أن تساؤل الدكتور هيكل بخصوص موقف مصر كاث
اجابته معروفة ان كان يقصد موقف الحكومة المصرية الرسمي .
فموقفها بالطبع هو موقف حكومة الاحتلال وما كان لها أن تغير في
هذا الموقف أو تبدل فيه وهي تحت امرة قوات احتلال بريطانية على
أرضها .

وكانت إيطاليا قبل اقدامها على احتلال طرابلس الغرب قد
مهدت لذلك بسلسلة اتفاقات سرية لهذا الغرض ، فعقدت مع إنجلترا
اتفاقاً سرياً في ١٢ من فبراير ١٨٨٧ أكد تأييدها لأعمال بريطانيا
في مصر مقابل تدعيم بريطانيا للأعمال التي تقوم بها إيطاليا في
أى ناحية من سواحل شمال أفريقيا ولاسيما في طرابلس الغرب
وينى غازي وذلك في حالة استيلاء دولة ثالثة على أى جزء من
أجزاء تلك السواحل وفي كل الأحوال سيساعد الطرفان بعضهما
البعض في جميع الأمور التي تتعلق بالبحر المتوسط .

كذلك عقدت إيطاليا اتفاقتين سريتين مع فرنسا الأولى في
١٤ ديسمبر سنة ١٩٠١ ، والثانية بعدها في السنة التالية سنة
١٩٠٢ اعترفت فيهما فرنسا بأن برقة وطرابلس منطقة نفوذ إيطاليا
كما وافقت إيطاليا على اطلاق يد فرنسا في مراكش .

ولهذا اجاب الدكتور هيكل على تساؤله بقول : كان موقف
الحكومة المصرية في هذا الظرف الدقيق سلبيا صرفا . تركت الأمر
لإنجلترا ولمثلها في مصر لورد كتشنر تتصرف فيه السياسة
البريطانية بما تشاء .

كان موقف مصر من هذه الحرب أمرا هاما بالنسبة لكل من
الدولة العثمانية وإيطاليا فبالنسبة للأولى كانت مصر رسمياً ولاية
عثمانية ومن حق الدولة العثمانية عليها أن تسلك المسلك الذي

تسلكه هذه الدولة خاصة اذا كانت هذه الدولة فى حاله ربح مع دولة اجنبية وفى الوقت نفسه تجاوز مصر هذا الاقليم الذى وقع عليه العنوان . ودار تساؤل عما اذا كان من حق الدولة العثمانية أن تمرر جنودها عبر مصر لتحارب الايطاليين فى طرابلس الغرب . كانت العناصر الوطنية فى مصر شبه مجمعة على أن تبادر الدولة العثمانية الى ارسال جنودها الى مصر دون استئذان وزارة الخارجية البريطانية او حتى احاطتها علما بذلك ، وانما تجيء جنودها مباشرة وترسل اوامرها الى الحكومة المصرية لاستقبالها وتمهيد السبل لها والمحافظة عليها ومدها بما تحتاج اليه طبقا لحقوق الدولة العثمانية وما تقتض عليه القرمات العثمانية التى صدرت منظمه حقوقه الدولة العثمانية فى استخدام الجنود المصرية عند نشوب الحرب فى أية جهة نريدها . وظهرت مقالات فى الجريدة تحت عنوان مرور الجيش العثمانى بمصر تناقش هذا الرأى ولم يشهد لطفى السيد عن هذا الاجماع فى حق الدولة العثمانية فى مرور قواتها عبر مصر . ومن المعروف أن لطفى السيد كان له رأيه الذى خالف به الكثيرين من هذه الحروب فيقول الدكتور هيكل : بينما كان الناس فى الطفرة الأولى من هذا الاندفاع القوى لمعاونة دولة الخلافة ، اذا بلطفى بك السيد يطالعهم فى الجريدة بثلاث مقالات فى ثلاث أيام متعاقبة عنوانها جميعا « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » يدعو فيها المصريين الى التزام الحياد المطلق فى هذه الحرب ويذكرهم بأن من الخير أن يبنلوا هذه الأموال لخير مصر ولانشاء المرافق المصرية النافعة لأبناء الوطن ، فليشد ما يحتاج لبناء مصر الى انشاء هذه المرافق ، ولشد ما تفنقر مصر الى الاصلاح ،

وقد اثارته هذه المقالات شعور المصريين وصدمتهم فى عواطفهم الأمر الذى لم يستطع معه لطفى السيد أن يقنع حزيه بمجاراته فيما

يقصد ويكتب ، بل اندفع الحزب فى الطريق الذى اندفع فيه الرأى العام المصرى أو نقول على حد قول هيكل ٠٠ خشى الحزب مواجهة الرأى العام فنكص فلم يتابع لطفى ولم يؤازره ، واضطر لطفى الى الانسحاب من الايدان والسفر الى برقين تاركا الجريدة لمن يتولى غيره امرها ٠ وترك الأمر للدكتور هيكل يكتب المقالات السياسية الذى ترك الكلام عن موقف مصر المحايد وأخذ يهزأ بايطاليا التى اعتبرت احتلالها لبرقة وطرابلس نزهة بحرية فلما جاءت لقيت من الهزائم ما جعل هذه النزهة وبالا عليها ٠

المعروف عن موقف الحكومة البريطانية فى احتلال الايطاليين لطرابلس الغرب أنه لم يكن موقف المعارض لهاد الاحتلال ورات أن خير ما يتبع فى مصر أثناء هذه الحرب هو موقف الحياد القام وما كان لها أن تقف غير ذلك حتى لا تصدم الشعور العام للمصريين فى هذه الحرب ٠ وأصدرت بريطانيا تعليماتها بالفعل الى قائد القوات الايطالية المحاربة أن المياه الإقليمية المصرية تعتبر مياهها محايدة فى الوقت الذى تعهدت فيه لايطاليا أن تكون مصر قاعدة لعمليات عسكرية ضدها ٠

ومن ثم لم تقدم الحكومة الايطالية على محاصرة أى ميناء مصرى اطمئنانا لموقف الانجليز ٠ كما أبلغ كتشنرالسير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية أن مصر تسير على قواعد الحياد الدولى كما ان الأمور تسير على مايرام باستثناء بعض السفن العثمانية فى الموانئ المصرية أكثر من أربع وعشرين ساعة (حسبما تقضى به قواعد ذلك القانون الا تبقى سفن المتحاربين فى أحد موانئ الدولة المحايدة أكثر من تلك المدة) تجنباً للاجراج مع الدولة العثمانية ٠

ويلاحظ ان الدولة العثمانية لم ترسل قوات لها لتجتاز مصر وهو مافسره بعض الباحثين أن الدولة العثمانية كانت تخشى اذا

هى اقتضت على اجتياز مصر بقواتها ان تعتبر بريطانيا ذلك خرقاً للمعاهد الذى فرضته على البلاد وبالتالي قد يؤدى ذلك الى ضياع حقوق الدولة العثمانية فى مصر بمعنى انه قد تعترض انجلترا على ذلك وبذلك فقدان هذه الدولة للرابطة الاسمية التى لها على مصر . ولكن الحقيقة هى ان هذه الدولة لم يشغلها أمر ارسال قوات لها عبر مصر فما كانت لتستطيع ان ترسل قوات الى هذا الاقليم . ولقد اثار النواب العرب فى مجلس المبعوثان بعد حدوث هذه الكارثة خطر استهتار الاتحائيين فى المحافظة على طرابلس الغرب ، ولسوا نتيجة سحبهم الجند منها كى يرسلوهم الى اليمن ويتركوها عزلاء ليضربوا بهم منطقة عربية اخرى . فاعتمدت خطة الأتراك على تجربة الدفاع المحلى عن الاقليم بابناء الاقليم وهو ما التجأ اليه أنور بك وعزيز المصرى ومصطفى كمال بك (اتاتورك فيما بعد) الذين تطوعوا للذهاب الى طرابلس الغرب من أجل تنظيم الدفاع عنها ورافقهم بضعة عشر من الضباط العرب الآخرين فوضع هؤلاء خطة تقضى بجمع الأهالى وتسليمهم وتدريبهم تدريباً سريعاً وعزز هذه الخطة اقبال العرب من سنوسيين وقبائل محلية ومتطوعين سودانيين أو مصريين من مختلف البلاد العربية على التعليم العسكرى . ورأى البعض فى ذلك جدوى للتشكيلات العسكرية المحلية فى الدفاع عن اطراف الدولة العثمانية وزادت فى قناعة الساسة العرب فى أهمية اللامركزية منهاجاً فى حكم الدولة .

وحتى لا يصدم كتشنر المصريين فى شعورهم فقد شجع حركة جمع التبرعات لتوكيا اعانة لها على نفقات الحرب بل شارك بالتبرع فى هذه الحملة وكان أمراء الأسرة المالكة فى مصر على رأس الوفود التى تنقلت فى الاقاليم لجمع التبرعات فكان ذلك دافعا للناس على البذل بسخاء لأنهم راوا الحكومة لاتعارض وأمراء البلد المالك

يشجعون ويتبرعون والمعتمد البريطاني نفسه يشجع ويشترك .
ولم تلت الدعوة اذنا صاغية من الجميع وذهب الأمير عمر طوسون
مع الهيئة القائمة لجمع التبرعات الى المنصورة فجمع في أقل من
نصف ساعة مائة ألف جنيه وستة آلاف ذهباً .

كذلك يحدثنا الدكتور هيكل عن أن هذا الشعور المتعاطف مع
دولة الخلافة الإسلامية عم كل مديريات مصر . وكان الناس ينظرون
في ذلك دهشين كيف تشجع انجلترا حركة جمع تبرعات كيف تشجع
دولة اسلامية على دولة مسيحية . على أن السياسة البريطانية لم
تذهب أبعد من ذلك ولم تسمح باشتراك الجيش المصري في هذه الحرب
ولم تسمح بمرور الجيوش التركية من الأراضي المصرية محتجة في
هذا وفي ذلك بأن مصر مستقلة داخليا عن تركيا ، فإذا اشتركت
الحكومة المصرية في الحرب لم يقف الأمر عند اعتبار ذلك تعد على
استقلال مصر ، بل أدى بانجلترا ولها في مصر مركزها الخاص
بحكم الاحتلال الى أن تهتم بالخروج عن الحياد ، وبالإشتراك في
حرب ضد إيطاليا ليس له مسوغ .

ولذلك عين كتشندر مأمورين انجليز بدلا من المصريين في
الحدود المصرية ومنع أهل برقة وطرابلس من دخول الأراضي
المصرية وفرض رقابة صارمة على الحدود المصرية حتى تعطلت
التجارة بين طرابلس ومصر ورفض (اللورد) ارسال بعض اداريين
من الجيش لمساعدة الأتراك كما رفض المرافقة على تطوع جماعة
من الضباط المصريين في الجيش التركي ووضع للعيان أن كتشندر
بتصرفه ذلك يريد أن يوضح على الملأ أن مصر لم تعد ولاية عثمانية
على الاطلاق .

وعندما طلب زعماء البدو من أولاد على تجنيدهم للحرب
وافق على ذلك على أن يطبق عليهم من الآن فصاعدا قانون الخدمة
العسكرية التي كانوا معقون منها .

وفى هذه الأثناء كان هياج الخواطر فى العالم الاسلامى قد بلغ ذروته . فأبرق امام اليمن يحيى على استعداده لقيام بمائة ألف جندى تحت قيادته بين محارب ومتطوع وأبرقه امير مقاطعة نجد (الأمير عبد العزيز بن سعود) يقول « ان مقاطعة نجد تفتخر اليوم من كل جوارحها بأنها مقاطعة عثمانية . » وانه وجميع القبائل التى تحت أمره مستعدون للزحف فى ظل الاعلام العثمانية الى حيث تأمرهم الدولة العلية ، وجاء كثيرون من أبناء البلاد الاسلامية للتطوع فى الجهاد وفى طرابلس الغرب ضد ايطاليا المعتمدية . وزاد عدد هؤلاء المتطوعين فوصل فى العام التالى (١٩١٢) حوالى الستة عشر ألفا . يقول الدكتور شكرى فى كتابه الجيوسية بين ودولة : وكان أهم الأسباب التى دعت آلاف المسلمين الى التطوع فى صفوف المجاهدين تلك الرابطة التى دفعت بهذه الشعوب الاسلامية الى التكاثر والتساند فى وجه العدو والمعتدى وعلى وجه الخصوص عندما وقع الاعتداء على قطر من اقطار دولة الخلافة الاسلامية وكان المسلمون متحفزين وقتئذ للانتصار دائما لدولة الخلافة ويقبلون الجهاد من أجل المحافظة على كيائها لأنهم توقعوا من سقوطها وانحلالها ضياع الكلمة وضعف القوة ولم يكن العرب قد استعدوا بعد لانشاء دولة عربية مهيئة الدعائم لتكون مركزا للامانة العظمى ، كما كان يخيفهم ويزعجهم شبح الاستعمار الأجنبى ويشفقون على قطر عربى شقيق من الوقوع فى براثنه . أضف الى هذا ان الإيطاليين سرعان ما ظهروا فى اثناء المعركة الأولى والثانية انهم لا يتورعون عن ارتكاب افسس انواع الفظائع ضد الامليين فى أى مكان نزلوا به بغية الظفر بأعدائهم والتكيل بهم لارغامهم على ترك المقاومة والرضا بالتسليم السريع .

كان المصريون من أسبق الشعوب التي بذلت المعونة للمجاهدين في ليبيا • فشككت اللجان لجمع التبرعات كما قلنا • وكان أهمها اللجنة العليا التي تأسست بعد الاعتداء الإيطالي بأيام قليلة (١٤ أكتوبر ١٩١١) برئاسة الأمير عمر طوسون • كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة المرحوم الشيخ على يوسف وقررت انشاء مستشفيات في الميدان وكان من أثر ذلك أن سافرت البعثة الأولى في ٧ نوفمبر من العام نفسه وتولبت البعثات الطبية بعد ذلك •

وإذا كانت بريطانيا قد تعهدت والتزمت ببقاء مصر (العثمانية) محايدة في الحرب الدائرة بين إيطاليا والدولة العثمانية وقبلت إيطاليا هذا الحياد بل ورحبت به فلابد أنه لم يكن ثمة مبرر للموقف الذي اتخذته السلطات الإيطالية • نبعثة الهلال الأحمر المصرية ومهمتها إنسانية بحتة ومن المتفق عليه دوليا إلا توضع عقبات في وجه تادية البعثات الطبية لمهامها سواء كانت من الجانبين المتحاربين أو من طرف ثالث يتخذ موقف الحياد • فقد وجه الشيخ على يوسف رئيس تحرير المؤيد رسالة الى صحيفة المورننج بوست البريطانية بأن الإيطاليين رفضوا التصريح لبعثة الهلال الأحمر المتجهة الى طرابلس بحرا بالنزول الى البر •

عبر كتشنر عن أسفه لهذا الموقف من جانب السلطات الإيطالية وشعر أن هذا الموقف سوف يزيد من حدة العداء الذي يشعر به المصريون نحو إيطاليا • كما أنه سوف يزيد من حدة الصراع ومرارته ويصل بالحرب الدائرة الى ذروتها المريعة •

وخوفا من ذلك كله سعت الحكومة البريطانية عن طريق سفيرها في روما - لاقتناع الحكومة الإيطالية بأعادة النظر في قرارها الخاص بمنع بعثة الهلال الأحمر ، ولكن مساعي السفير البريطاني لم تنجح •

كانت الحكومة الايطالية تتذرع باتخاذها هذا القرار بالمنع استنادا الى ما جاء فى تقرير الجنرال كانيفا قائد القوات الايطالية - بأن الأماهى فى طرابلس (قد يعتبرون نزول بعثة الهلال الأحمر فى طرابلس فى الوقت الحالى بمثابة دليل يؤكد استمرار السيادة التركية) بالاضافة الى التعلل بأن الحكومة الايطالية تلقت معلومات من مصادر عدة تؤيد اعتقادها بأن الأمير عمر طوسون وجمعية الهلال الأحمر المصرية لديهما خطة مرسومة ومنظمة لارسال الضباط والمؤن الى طرابلس « حيث مازالت المقاومة مستمرة بفضل التشجيع الذى تلقاه من مصر » وأن الايطاليين يشكون فى أن أفراد بعثة الهلال الأحمر ما هم الا ضباط متذكرون ، رغم أن السفير البريطانى فى روما رد على هذه النقطة الأخيرة بأنه من السهل التأكد من شخصية الأطباء المرافقين للبعثة . كما أكد كتشنر أنه لايمكن خروج أسلحة ومعدات ومؤن من مصر بسبب الاجراءات التى تتخذها فعلا السلطات البريطانية .

ومع ذلك فقد تمسكت الحكومة الايطالية بموقفها وبدأ السفير البريطانى فى روما يلاحظ أن الجنرال كانيفا قد قرر اتخاذ موقف بالغ الصرامة فى هذه المسألة حتى أنه رفض أيضا السماح لبعثة الصليب الأحمر الالماني .

وقد استمر كتشنر يرأسل حكومته لكى تقوم باتصالات مع الحكومة الايطالية من أجل السماح بسفر بعثة الهلال الأحمر ، وقد استفسرت منه حكومته عن الاجراءات التى يمكن أن يتخذها لضمان السيطرة على تكوين البعثة ونشاطها فى النهاية بحيث يمكن معه القضاء على الشكوك الايطالية .

ورد كتشنر أنه من أجل الحيلولة دون اخفاء الأسلحة والعتاد وغيره فإن حقائب البعثة سوف تخضع لتفتيش دقيق على يد ضباط

بريطانيين • وبعد الاطمئنان الى ذلك فإن أفراد البعثة سوف يتسلمون جوازات سفرهم من قومندان شرطة الاسكندرية أو من وزارة الداخلية ذاتها ثم تراجع مرة أخرى عند السفر من أول محطة على الخط الحديدي في سكة حديد مريوط •

وقد أبلغ سفير بريطانيا في روما وزير الخارجية الإيطالية بكل هذه الاحتياطات التي سوف يتخذها السلطات في مصر للتأكد من شخصية أفراد بعثة الهلال الأحمر وأمتعتهم ومهماتهم ، ومع ذلك أجاب المركز دى سان جوليانو بأنه لا يستطيع أن يصدق أن أهداف هذه البعثة أهداف إنسانية بحثة إلا أنه على ثقة أن الاجراءات التي يتخذها لورد كتشتر ستحول دون استخدامها استخداما سيئا •

وفى يناير ١٩١٢ أقيمت سوق خيرية فى حديقة الأزبكية لجمع التبرعات للهلال الأحمر •

ليس معنى هذا أن كل المصريين كانوا على هذا الرأى من حيث ضرورة مساعدة الدولة العثمانية فى محنتها والوقوف مع الشعب الليبي الشقيق • يقول لطفى السيد انه عندما قامت الحرب (اغارة إيطاليا على طرابلس الغرب) ظنتها فرصة لتحقيق ما كنت ادعو اليه من هذه الحرب وهى أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لاتجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ، ولا تستطيع أن تنقذها من الاحتلال البريطانى الذى لا يمكن الخلاص منه الا بتضافرنا والاعتماد على انفسنا •

ويقول لطفى السيد وقد اغضب هذا الموقف بعض الناس ، ولكنى لم التفت الى غضبهم واتفق ان جاءنى كتاب من تاجر بدمياط لا اعرفه ، يقول فيه أن الطليان احتجزوا له سفينته محملة بالأرز فى عرض البحر لأنها تحمل العلم التركى ، وهو علم مصر ، فذهبت

الى حسين رشدى باشا وزير الخارجية وقتئذ وأطلعته على الخطاب وطلبت اليه التوسط بالافراج عن السفينة ، فخابر ممثل ايطاليا فى مصر فأفرج الطليان عنها ، وعادت السفينة للى صاحبها •

وذهب لطفى السيد مرة اخرى يطلب الى رشدى أن يستبدل بالعلم العثمانى علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم اتقاء لمثل ما وقع لتاجر دمياط ، ويعاود الكرة على رشدى باشا فى الثالثة طالبا اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية وأن تنصب الخديو ملكا عليها ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال، ورجاء باسم حزب الأمة أن يعرض هذا الأمر على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ، وطلب اليه الا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين • وبعد يومين استدعاه رشدى وأخبره أن الخديو مسرور جدا من هذه الفكرة وأما اللورد كتشنر فقد رفضها لأن انجلترا لا تريد مضايقة تركيا • وقال له أنه أخبر بها سعيد باشا فأعتبر لطفى ذلك خيانة من رشدى ثم ذهب الى اللورد كتشنر وحادثه فى الأمر فقال له كتشنر : لقد بسطنا يدنا لتركيا فبصقت عليها ، وولت وجهها شطر المانيا ولو أنها كانت قد قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيرا ومع هذا فانى لا اجد الوقت مناسب لقبول فكرتك • رجع بعدها لطفى الى رشدى باشا وكان قد قابل الخديو مرة ثانية فقال له أن الخديو يرى أن يؤلف وفد من عدلى باشا وسعد باشا وأنت للذهاب الى لوندرة للسعى لتحقيق هذا الأمر مباشرة مع الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى وأبدى الخديو استعداداه للتكفل بنفقات السفر •

واجتمع الثلاثة (رشدى ، عدلى ، وسعد) فى بيت سعد زغلول يبحثون تدبير الخطة واخذ لطفى ينشئ حملة فى هذا المعنى تحت عنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) •

يقول لطفي السيد أن هذه الأحداث امتدت أسابيع ، فى اثنتائها قام الأمير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والأعيان لجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى هذه الحرب ، وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض ، ويشترزون المؤن والأسلحة ويرسلونها للجيش التركى فى طرابلس .

وكانت الصحف المصرية - عدا الجريدة - تشجع هذه الحركة وتنتشر أخبارا عن هذه التبرعات تنبئ أن الأمة كلها مع تركيا فتداول الثلاثة فى هذا الموقف الذى وصفه لطفي بأنه موقف عسير لأن الأمة وهى بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها ، لايمكن أن تريد الانفصال عنها ، ولهذا لم ينجح المشروع ، وسقط فى الماء .

لعل هذا يفسر ما يراه بعض المؤرخين من أن الخديو عباس وقف موقف المتردد من الحرب الطرابلسية ففى بداية الحرب سهل ارسال الاعانات والبعثات الطبية الى المجاهدين فى طرابلس ثم تغير موقفه بعد أن تحولت الحرب لصالح الايطاليين .

ويوضح الأمير شكيب ارسلان ما طرأ على موقف الخديو من تغيير فى رسالة بعث بها الى فضيلة الشيخ محمد الأخضر العيساوى من جنيف فى ١٨ سبتمبر ١٩٣٦ يشرح فيها ما وقع له عندما قابل سمو الخديو فى أثناء سفره من طرابلس ومروره بمصر فى طريقه الى الاستانة للبحث فى مصير طرابلس الغرب كتب الأمير « وعندما جئت من طرابلس الى مصر فى شهر أغسطس ١٩١٢ وذهبت من مصر الى الاستانة مسرعا ٠٠ كان السبب فى ذلك أنى علمت أن الدولة قررت الصلح مع ايطاليا فحقت أن تهمل طرابلس تماما فأحببت أن أجعل الدولة تساعد الطرابلسيين بطرق خفيفة على يد الأمير عمر طوسون وغيره حتى يستمر الجهاد ولا تذهب طرابلس ،

ولما وصلت الى السلوم قال لى رجال الحكومة المصرية هناك
 ان سمو الخديو ارسل يسال عنى وامر ان الباخرة التى تاتى الى
 مرسى السلوم تأخذنى انا وجماعتى الى الاسكندرية وانتظرتنى
 الباخرة فتأخرت عن الورود فرجعت بدونى . فبقيت سائرا حتى
 وصلت الى المكان الذى ينتهى فيه سكة الحديد خاصة الخديوى
 وكان يقال له رأس التركيب فقالوا لى هناك أيضا ان الخديوى جاء
 بنفسه وسال عنك وقد امر انك عند وصولك تعرض له ففرحت انا
 بهذه الأخبار ظانا ان الخديوى متشوق الى اخبار الجهاد ويريد ان
 يعرفها منى فيلح فى وصولى . فلما وصلت الى الاسكندرية وجدت
 صدقى أحمد بك العريسى البيروتى أحد أعوان الخديوى فى
 انتظارى . فقال لى ان أفندينا أرسلنى لاستقبالك ولانذهب بك الى
 سراى رأس التين لتنزل ضيفا عنده . فذهبت ودخلت عليه وانا
 بثياب السفر حسب ارادته ، وكنت اظن ان أول سؤاله يكون عن
 المجاهدين وحالة الجهاد ، وكما نمرادى ان اقول له ان كل شيء جيد
 لولا قلة علف البولريد لعله يساعد بطريقة تزيج هذه العلة . فما
 راعنى الا كون الخديوى سأل عن كل شيء ماعدا الجهاد . فبرد
 وجهى وخرجت متقبض الصدر وكأشفت أحمد العريسى بما وجدته
 فى نفسى فقال لى اذا سالك أفندينا عن الحرب فلا تقل له انه يلزم
 جبخانه وانها قليلة . قلت لماذا ؟ قال : يجوز ان أفندينا يقول ذلك
 لأحد بدون قصد فمن واحد الى آخر يصل الخبر الى الطليان .
 والحقيقة التى علمتها فيما بعد ان الخديو كان اتفق مع ايطاليا على
 ان يبيعها سكة حديد مريوط بثمن عظيم فى مقابل مساعدتها على
 اخماد الحرب . ولكن أحمد العريسى لم يكن يقدر ييوج بالسر
 وهو مسلم مخلص فنبهنى حتى لا اقول للخديو ان أحد المجاهدين
 فى احتياج الى الجبخانة . ثم تركنا على الافطار لأن الوقت كان
 رمضان . وكان على المائدة الخاصة بسمو الخديو بجانبه حسين

باشا زندي ثم قاضى مصر وكان تركيا . وهذا العاجز والشيخ على يوسف . وكانت بقية الموائد مصفوفة وعليها مفطرون كثيرون . وبدأنا بالحديث على الأكل . فقال الشيخ على يوسف : أن الدول قررت عدم اقراض مال لتركيا اذا كانت لاتزال ترفض الصلح مع ايطاليا . فقلت له : ان تركيا مضطرة ان تتابع الحرب حفظا لشرفها فقال ومن أين تأتي بالمال ؟ فقلت له : كل ما تنفقه تركيا على حرب طرابلس هو ٧٠ ألف جنيه كل شهر والحال أن ايطاليا تنفق فى الشهر مليون جنيه . فقال الشيخ على : الا أن السبعين ألف جنيه بالنسبة الى تركيا كالمليون جنيه بالنسبة الى ايطاليا فالسولة لا تقدر على متابعة الحرب . فقلت له : اذا عجزت السولة فالعالم الاسلامي يقدر على مساعدة طرابلس ، فقال اما نحن اهالى مصر فلا نقدر اذا صالحت الدولة على طرابلس أن تستمر على مساعدة الطرابلسيين ان يكونون حينئذ رمية ثائرة على ايطاليا .

« هذا كله كان يقوله الشيخ على يوسف لا الخديو . بل الخديو كان ساكتا وقد علت وجهه الحمرة . وفيما بعد قهمت أن الشيخ على كان مقصده بهذا الكلام التزلف للخديو لأنه كان مطلعا على الدسياسة . فانا لم أكن أعلم شيئا عن هذه الدسياسة . ولم أكن لابلأى بها على فرض انى علمت بها . فلما سمعت جدال الشيخ على هذا عقيبت وقلت له بحدة : لا تساعدون أهل طرابلس فإله يغنيهم عنكم . فانقطع الكلام على اثره هذه الحدة ووجه الخديو وصار قاضى مصر يبتسم . وقمنا عن السفارة الى الصلاة . فآخذنى الخديو بيدي لأنه شعر بكونى تأثرت جدا . ومازال حتى وصلنا الى السجادة الخاصة به فتحنى قليلا الى اليمين حتى أن السجادة تسعه وتمعنى . وكل هذا يقصد به تلطيف خاطرى وأنا لا أعى من التأثير . فلما بدأ الامام الصلاة ولم يكن الامام حاضرا

مجلسنا ولا ضمع شيئاً مما دار بينى وبين الشيخ على الهمه الله ان
يقبرا بعد الفساحة قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم ان العزة لله
جميعا) •

وينكر هذا الخطاب مسألة اتفاق الخديو عباس حلمى الثانى
مع ايطاليا على ان يبيعها سكة حديد مريوط بثمن عظيم نظير
مساعدها على اخضاع الحرب وهى مسألة تحدث عنها احمد شفيق
باشا فى الجزء الثانى من كتابه (مذكراتى فى نصف قرن) فذكر
انه اشيع بعد عقد الصلح بين الأتراك والأتليان بثلاثة شهور اى فى
أوائل عام ١٩١٣ ، وفى أثناء استمرار القتال فى طرابلس والبلقان
ان الخديو باع سكة حديد مريوط الى بنك درسدن الالمانى ، ولكنه
لم يلبث ان اتضح بعد ذلك ان عقد البيع قد امضى فى الحقيقة مع
بنك ايطالى • ورخص له الخديو بأن يمد هذا الخط الى نهاية حدود
طرابلس فى السليم فنار عقد هذه الصفقة اهتمام الانجليز • وتدخل
اللورد كيتشنر فى الأمر وهدد (عباس) وأخرج مركزه فاضطر
الخديو الى العدول عن بيعها لايطاليا ، والذى عقد البيع مع البنك
الايطالى وباع السكة الى الحكومة المصرية •

وقشلت وساطة الخديو لدى السنوسيين للاخلاد الى السكينة
الذين صعموا على القتال حتى اجلاء القوات الايطالية عن الأراضى
الليبية • فلم ينجح الوفد الذى أرسله الخديو فى أواسط ١٩١٣
والمؤلف من بعض الأشخاص ومعهم عبد الحميد بك شديد من رجال
المال فى مصر ومعهم كتابا خاصا من الخديو الى السيد احمد
الشريف • لكن الوفد رجع الى القاهرة فاشلا فى مسعاه •

وينكر احمد شفيق الى جانب ماتقدم شيئاً عن مهمة عبد الحميد
بك شديد للسيد ادريس السنوسى ليغريه بالاتفاق مع ايطاليا حسما

للحرب ، على أن يسعى الخديو فى الحصول له على امتياز من ايطاليا وتنصيبه رئيسا على السنوسيين بدلا من عمه الشيخ احمد السنوسى الكبير . وفى نظير ذلك يتحصل معه على وعد ببيع سكة حديد مريوط لأحد بنوك ايطاليا بثمن يرتضيه لكن المساعى التى كان عباس يبدل الجهد فيها للوصول الى ذلك فشلت لأن كشتنر ضريها ضريبة قاضية .

وكان لابد أن تفشل كل المساعى وجاء فى المذكرات نفسها ، ولما توالى انتصارات ايطاليين فى طرابلس فى الأشهر الأخيرة من الحرب ، وتغير موقف الخديو ، عاد قطلب من كشتنر بواسطة حسين رشدى باشا وقف المساعدات ، فأمتنع عن اتخاذ خطة صريحة بذلك بعد ما سمح بارسالها أولا . وانتهى الأمر بأن يقال أن البعوث ضلت الطريق ، وقد منعت بعوث الهلال الأحمر العائدة من الدخول بالمرضى الى مصر .

لكنه بصرف النظر عن موقف الخديو فقد كانت عواطف المصريين وقلوبهم مع اخوانهم العرب المجاهدين فى طرابلس .

وانبرى الشعراء ينددون بهذا الغزو وفى ذلك فيقول حافظ ابراهيم :

احرقوا الدور استحلوا كل ما
 حرمت (لاهى) فى المهذ احتراما
 بآرك المظفران أعمالهم
 قسلوه بآرك القوم علالما
 أبهـذا جاءهم انجيلهم
 أمرا يلقى على الأرض السلاما ؟

ولم يكن شعراء مصر وحدها هم الذين نددوا بهذا الغزو
والتنديد بالهجوم الايطالى البشع على ارض عربية شقيقة فقد القى
الشعراء العرب فى الاقطار العربية الأخرى قصائد هم بهذه المناسبة
ومن ذلك قول فؤاد الخطيب :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب
هبوا فقد صرخت تحت الثرى الرمم
صوتوا طرابلس الغرب ارحموا بلدا
جاءت على اهله العقبان والرحم
يا صاحب السيف والرجال واحدة
أسرع الى الحرب لازلت بك القدم
يا صاحب المال والأموال بائدة
يا سر الى البذل لاضاقت بك الهمم

وأخذت الصحافة المصرية تندد بهذا الاحتلال • وقد أوضحنا فى
كتابنا عن محب الدين الخطيب الدور الذى قام به خلال تلك الأحداث
حيث كان يعمل محررا فى صحيفة المؤيد • استأجر مسكنا له قريبا
لدار المؤيد فى شارع محمد على وصارت اذا جاءت برقيات مهمة
عن اخبار الحرب فى طرابلس يوصى من عمال الصحيفة من يحملها
له على وجه السرعة وينظم منها الخبر الذى سرعان ما تجمع
حروفه ويسلم الى المطبعة لتصدر به ملاحق كصحيفة المؤيد •

والباحث الذى يرجع الى اعداد المؤيد فى هذه الفترة يحس
مدى نجاحها فى انهاض هم المصريين للتبرع للمجاهدين ومقاومة

البضائع الايطالية واصبحت المؤيد خلال هذه الفترة تشيد بجهاد الطرابلسيين ضد الغزو الايطالى وتهاجم لطفى السيد على صفحاتها وكان من شأن ذلك أن سمحت الدولة العثمانية للمؤيد بدخول ولايات الدولة • وينشر ذلك فى ملحق عاجل للجريدة جاء فيه قرر مجلس الوكلاء رفع المنع عن المؤيد وأن يبلغ ذلك لكل الولاية وقالت الأخبار القادمة من الاسقانة أن الرأى العام فيها يعتبر المؤيد قوة كبرى من قوى العالم الاسلامى يجب الاستفادة منها على الدوام •

ولم تكن المؤيد وحدها هى التى وقفت تناصر الأشقاء الليبيين فقد كانت صحف الحزب الوطنى بالطبع تجد فى اشتراك مصر فى هذه الحرب وسيلة لكى تتخلص مصر من الاحتلال البريطانى ، وكان المصريون يجدون فى ضبايح طرابلس ضبايعا لأمالهم فى المستقبل وأن دفاعهم عن بلاد ترتبط بمعهم برباط الجوار واللغة والدين انما هو دفاع عن أنفسهم لأنه اذا ظفرت ايطاليا بطرابلس الغرب لأبد وأن تؤازر انجلترا التى ان لم تؤيدها ظاهرا فى هذه الحرب فقد دفعت سلطاتها فى مصر موقفا محايدا لكنه مشوب بالعطف على امانى الايطاليين فى الظفر بهذا الاقليم • وتساءل المصريون ماذا تصنع انجلترا بمصر وقد احتلتها أكثر من ربع قرن اذا رأت من تركيا تخاذلا أمام اعتداء ايطاليا ومن المصريين سكونا واستسلاما لذلك البلاء الواقع • وانه لما كان استقلال مصر الذى اغتصبته انجلترا متوقف على اتصال مصر بالدولة العثمانية ، فان من مصلحة المصريين الدفاع عن ذلك الاستقلال والاتصال بالدولة العثمانية لأن فيه دفاعا عن هذا الاستقلال المسلوب وليس كما تتهم أوروبا المصريين بأنهم يحبون الاستعباد بقصد اضعاف الروابط بينهم وبين الدولة العثمانية • وبقاء طرابلس فى يد الدولة العثمانية له علاقة كبيرة بنجاح مصر بينما ضياعها فيه القضاء على مستقبل مصر

ومن ثم رأى الكثيرون أن نيل مصر الاستقلال متوقف على استطاعة الدولة العثمانية الدفاع عن مصر وأنه إذا نجح الإيطاليون في الاستيلاء على طرابلس فإن معناه تمكين انجلترا من تحقيق بغيتها في مصر والسودان عملاً بمبدأ التعويض وعلى ذلك إذا تطوعت الأمة المصرية جميعها في هذه الحرب فإنها تتطوع دفاعاً عن حياتها ومستقبلها واستقلالها •

وتولت صحيفة العلم نشر رسائل احتجاج الكثير من المصريين وتبرؤهم من الخط الذي مضى فيه لطفي السيد وحزبه واتهموا الجريدة (بالظلمانية) في الوقت الذي أسهم الكثير من أعضاء حزب الأمة في الاكتتاب لبصرة المجاهدين وأسست ملك حقنى ناصب جمعية لتمريض الجيش العثماني علي غرار الصليب الأحمر ، بل أن صحيفة الجريدة لم تتوان عن نشر أخبار انتصارات المجاهدين على الإيطاليين في صدر صفحاتها بعناوين ضخمة بل رسمت إحدى تلك الانتصارات بانتصار عبدة الثأني إشارة الى ذلك الانتصار الذي تحقق على يد الأحباش وهن الإيطاليين فيها هزيمة منكرة سنة ١٨٩٦ • وحاولت الجريدة التوفيق بين مصالح مصر ومصالح جيرانها وأخوانها في الانسانية والدين مع الاحتفاظ بمصريتها في النهاية •

كانت إيطاليا موقفه بمشاعر المصريين تجاه ذلك الاقليم الذي تعرض للغزو وكانت تلج على بريطانيا بضرورة تشديد الاجراءات في منع أي تسلل عبر مصر ، فالسفير الإيطالي في لندن يبلغ وزير الخارجية البريطانية انه علم نقلاً على القنصل الإيطالي في تونس أن ضباطاً من الترك ومعهم مبالغ كثيرة من المال سيحاولون الوصول الى برقة من مصر لمساعدة المجاهدين وبناء عليه طلب السفير الإيطالي من السلطات البريطانية اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمنع

ذلك مثلما فعلت الحكومة الفرنسية في تونس لأن ذلك حسب قول
يعتبر خرقاً للحياة من جانب مصر .

كما شكى السفير الإيطالي في لندن (المركيز امبريالى) لوزير
الخارجية البريطانية من أن القوات التركية في طرابلس وبرقة
مازالت على اتصال بحكومة الاستانة وفي نفس الوقت هناك اتصال
من المسؤولين الأتراك بالمجاهدين وذلك عن طريق رسل راكبة بين
السلوم ومرسى مطروح ومن ثم تنقل الأطباء من الاستانة واليهما .

كما أبلغت الحكومة الإيطالية السلطات البريطانية بأن ثلاثة
قطارات كانت تنقل حمولة كبيرة أنزلتها بسفين أثناء الليل وأن هذه
القطارات غادرت الإسكندرية مساء يوم ٨ أكتوبر ١٩١١ على خط
سكة حديد مريوط وأن هذا العمل القصد منه بمساعدة حركة المقاومة
التي يقوم بها العرب ضد الإيطاليين .

واستمر السفير الإيطالي في شكاياته وهاجسه الى حد القول
أن هناك خطة تدبر في باريس بين شخصية تركية وبعض الدوائر
الاسلامية لارسال ضباط بريطانيين ممن كانوا في خدمة الحكومة
المصرية متكرين في ملابس بدوية الى طرابلس وبرقة عبر مصر بل
أكد أن الحكومة الإيطالية تلقت تقارير مفادها أن نحو مائة ضابط
تركي متكرين في زى البدو نجحوا فعلاً في العبور الى برقة من
مرسى مطروح وأن خفر السواحل يسروا مهمتهم وأن هناك ضباط
آخرون في طريقهم الى برقة من مرسى مطروح .

واخذ كتشنر ينفي ذلك ويؤكد أن التقارير الإيطالية مبالغ فيها
وأنه ليس صحيحاً أن مائة ضابط تركي نزلوا الى البر عند بير
مطروح وعزا كتشنر هذه الادعاءات الكاذبة الى الصحف المصرية

« ولكن بناء على تعليماتكم ، تعليمات جرائ (وزير خارجية بريطانيا لكثشنر) لقد عهدت الى رئيس الوزارة المصرية بأن يخطر رؤوف باشا ابلاغ الحكومة العثمانية بذلك كما نصحت الخديو بمنع استخدام مثل هؤلاء الضباط لخط السكة الحديد (سكة حديد مريوط) كما اصدرت تعليمات الى خفر السواحل بهذا المعنى . .

واتخذ كثشنر عددا من الاجراءات منها منع الاتصال البرقى مع طرابلس عبر مصر وزيادة القوة التى تتمركز عند السلوم وسيوة مع استمرار خفر السواحل والحدود بمراقبة الحدود بين المنطقتين وتكليفه المختصين فى اقتفاء الأثر فى مراقبة الطريق بين الفيوم والاسكندرية . وكان كثشنر يشعر أن المهمة صعبة فى الحيلولة بين الشعب المصرى وبين تسلسل اقاربه لنصرة اخوانهم المجاهدين فى ليبيا . فهو يعترف أن كل هذه الرقابة لم تمنع تسلسل المؤن والعتاد الى اقليم طرابلس الغرب . ففى رسالة له الى وزير الخارجية البريطانية أن هناك كمية كبيرة الأسلحة انزلها الترك الى البر فى نقطة ما على الساحل على بعد ستين ميلا غربى الاسكندرية حيث كان فى انتظارها عدد من الابل نقلتها الى الحدود وافلقت من المراقبة وسوف يحاكم رجال خفر السواحل المتورطين فى هذه العملية عسكريا وهم الآن فى السجن واننى أحاول التوصل الى معرفة من عاون فى ذلك وكذلك أصحاب الابل .

واذا كنا قد اشرنا فيما سبق الى مدى ما قدمه أبناء الشعب المصرى من معاونة لأشقائهم فى ذلك الاقليم الذى يربطهم به جوار ولغة ودين وتاريخ فان من أبناء مصر من انضم الى المجاهدين على الأرض الليبية وقد تناولنا فى كتابنا عن عزيز المصرى ودوره فى الحرب الطرابلسية ونرى أنه لا داع للفاضة فى ذلك . ثم كان ما

حدث من تفكير صفو العلاقات بين المجاهدين وعزيز المصرى عندما اراد الافراج عن بعض الأسرى فعارضه السنوسيون ثم ما كان من رغبته فى تنفيذ امر الانسحاب الذى صدر له من الحكومة العثمانية ورغبة المجاهدين فى استمرار النضال وساء لهم أن يخرج عزيز المصرى بجنده النظامى وما كان له أن يفعل غير ذلك وهو الرجل العسكرى الذى يعلم أن واجبه اطاعة ما يصدر له من أوامر وأن تسليم الأسلحة التى مع عسكره الى العرب لا يتفق مع الأصول الحربية ولا للأوامر التى صدرت له فكان اطلاق الرصاص من قبل المجاهدين على جنده المنسحبين . ولكنه نجح فى الانسحاب حتى بلغ الاسكندرية فى ١٦ يوليو ١٩١٢ ومنها ذهب الى الاسكندرية .

وهكذا احاطت الصعوبات بالمجاهدين فى طرابلس وبرقة من كل جانب فانه الى جانب قطع الموارد عنهم من جهة تونس ومصر فقد انسحبت القوة التركية من برقة والجبل الأخضر بكامل معداتها وبقيت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة لهجوم العدو وفى هذه الظروف الشديدة صعد السنوسيون فى وجه الطليان ثم أسندت قيادة المجاهدين الى السيد عمر المختار الذى شكل جيشا وطنيا جعل خطته التزام الدفاع والتريص بالعدو حتى اذا خرج الطليان من مراكزهم انقض المجاهدون عليهم فأوقعوا بهم شبرا وغنموا منهم أسلحة كثيرة من الأسلحة والعتاد ودواب النقل التى كانوا فى حاجة شديدة اليها جميعا . وظل الحال على هذا المنوال حتى كانت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ .

وأحيا اشتعال تلك الحرب العظمى الآمال لدى السنوسيين فى القدرة على الكفاح ضد الايطاليين وشجعهم أن الأتراك أخذوا يشدون أزرهم هذه المرة لرغبتهم فى اتخاذ برقة ميدانا يرسلون منه جيشا كانوا قد اعتزموا اعداده لغزو الأراضى المصرية . ولما كان الألمان

قد قرروا بالاشتراك مع العثمانيين ارسال حملة من الشام للاغارة على قناة السويس وغزو مصر من الجهة الشرقية فقد رأوا لضمان نجاحها انه لا بد ان يشغل الانجليز في الوقت نفسه بأمر الدفاع عن مصر من جهة حدودها الغربية حتى توزع قواتهم ويسهل على العثمانيين والالمان تنفيذ مآرهم .

ولكن الهجوم الفاشل الذي دبّره العثمانيون وأشركوا فيه السيد أحمد الشريف السنوسي على الحدود المصرية لم ينجح كما هو معروف وبخلت القضية الطرابلسية مرحلة جديدة .

المراجع

- ١ - إبراهيم أحمد العدوى :
رشيد رضا الامام المجاهد سلسلة أعلام العرب رقم ٢٢
المؤسسة العامة للتأليف والنشر .
- ٢ - أحمد زكريا الشلق :
حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية دار المعارف ١٩٧٩
الطبعة الأولى .
- ٣ - أحمد عزت عبد الكريم :
حركة التجديد في المجتمع العربي في القرن ١٩ محاضرات
غير مطبوعة على طلبه الدراسات العربية .
- ٤ - أحمد عزت عبد الكريم وآخرون :
دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة مكتبة الانجلو
بدون تاريخ .

٥ - أنيس المقسى :

الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الصديث دار العلم
للملايين بيروت الطبعة الرابعة ١٩٦٧ •

٦ - توفيق بـرو :

العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى معهد الدراسات
العربية ١٩٦٠ •

٧ - ثوقان فرقوط :

تطور الفكرة العربية فى مصر ، المؤسسة العربية للدراسات
والنشر بيروت بدون تاريخ •

٨ - حسين فوزى النجار :

احمد لطفى السيد ، سلسلة 'لأعلام رقم ٤ الطبعة الثانية
١٩٧٥ •

٩ - الجمعية التاريخية :

ذكرى البطل إبراهيم باشا ، مجموعة أبحاث ودراسات
تاريخية ١٩٤٨ •

١٠ - فؤاد المرسى خاطر :

حول الفكرة العربية فى مصر ، سلسلة مصر النهضة ،
١٩٨٤ •

- ١١ - محمد انيس ورجب حراز :
الشرق العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر الانجلو
١٩٦٧ .
- ١٢ - محمد حسين هيكل :
مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الاول ، دار المعارف ،
بدون تاريخ .
- ١٣ - محمد عبد الرحمن برج :
دراسة فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر 'انجلو ، ١٩٧٤ .
- ١٤ - محمد عبد الرحمن برج :
عبد الرحمن الكواكبي : الهيئة المصرية ١٩٧٢ .
- ١٥ - محمد عبد الرحمن برج :
عزيز المصرى ، الاهرام ، ١٩٧٩ .
- ١٦ - محمد عبد الرحمن برج :
محب الدين الخطيب ، هيئة الكتاب ، ١٩٩٠ .
- ١٧ - محمد فؤاد شكرى :
السنوسية دين ودولة ، ١٩٤٨ ، دار الفكر العربى ،
القاهرة .

١٨ - محمد فؤاد شكرى :

ميلاد دولة ليبيا الحديثة ، « جزءان » ، ١٩٥٧ ، مطبعة
الاعتماد ، القاهرة .

١٩ - محمد فؤاد شكرى :

الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر دار الفكر ،
بدون تاريخ .

٢٠ - محمود صالح منسى :

الحملة الايطالية على ليبيا ، دار الطباعة الحديثة القاهرة ،
١٩٨٠ .

الفهرس

٥ تقديم

٧ مقدمة

١٣ الفصل الأول : بدء حركة التحديث في العالم العربي

٤٩ الفصل الثاني : الشوام في مصر

٨٣ الفصل الثالث : التحرك العربي على الأرض المصرية

١٣٧ الفصل الرابع : موقف مصر من القضايا العربية

١٦٣ المراجع

مصدر في هذه السلسلة

- ١ - الأصول التاريخية لمسألة طابا - دراسة وثائقية .
د . يونان لبيب رزق .
- ٢ - مجمع اللغة العربية - دراسة تاريخية .
د . عبد المنعم الدسوقي الجميلى .
- ٣ - التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين -
دراسة في فكر الشيخ محمد عبده .
د . زكريا سليمان بيومي .
- ٤ - الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية في العصر الحديث
د . محمد كمال يحيى .
- ٥ - رؤية في تحديث الفكر المصرى - د الشيخ حسن المرصفى
وكتابه رسالة الكلم الثمان مع النص الكامل للكتاب .
د . احمد زكريا الشلق .
- ٦ - صياغة التعليم المصرى الحديث - دور القوى السياسية
والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣ - ١٩٥٢ .
د . سليمان نصيم .
- ٧ - دور مصر في افريقيا في العصر الحديث .
د . شوقي عطا الله الجمل .
- ٨ - التطورات الاجتماعية في الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩ .
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد .

- ٩ - المرأة المصرية والتغيرات الاجتماعية ١٩١٩ - ١٩٤٥ .
د . لطيفة محمد سالم .
- ١٠ - الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادي بين مصر والسودان -
« دراسة في العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ -
١٨٤٨ » .
د . نسيم مقار .
- ١١ - حول الفكرة العربية في مصر - « دراسة في تاريخ الفكر
السياسي المصري المعاصر » .
د . فؤاد المرسى خاطر .
- ١٢ - صحافة الحزب الوطني ١٩٠٧ - ١٩١٢ - « دراسة
تاريخية » .
د . يواقيم رزق مرقص .
- ١٣ - الجامعة الأممية بين النشأة والتطور .
د . سامية حسن إبراهيم .
- ١٤ - العلاقات المصرية السودانية ١٩١٩ - ١٩٢٤ .
د . أحمد دياب .
- ١٥ - حركة الترجمة في مصر في القرن العشرين .
أحمد عصام الدين .
- ١٦ - مصر وحركات التحرر الوطني في شمال إفريقيا .
د . عبد الله عبد الرازق إبراهيم .
- ١٧ - رؤية في تحديث الفكر المصري - « دراسة في فكر أحمد
فتحي زغلول » .
د . أحمد زكريا الشلق .

- ١٨ - صناعة تاريخ مصر الحديث - «دراسة في فكر عبد الرحمن الراقى»
د . حمادة محمود اسماعيل .
- ١٩ - الصحافة والحركة الوطنية المصرية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ - من ملفات الخارجية البريطانية
د . لطيفة محمد سالم .
- ٢٠ - الدبلوماسية المصرية وقضية فلسطين ١٩٤٧ ، ١٩٤٨
د . عادل حسين غنيم .
- ٢١ - الجمعية الوطنية المصرية سنة ١٨٨٣ - «جمعية الانتقام»
د . زين العابدين شمس الدين نجم .
- ٢٢ - قضية الفلاح في البرلمان المصري ١٩٢٤ - ١٩٣٦
د . زكريا سليمان بيومي .
- ٢٣ - فصول في تاريخ تحديث المدن في مصر ١٨٢٠ - ١٩١٤
د . حلمي أحمد شلبي .
- ٢٤ - الأزهر ودوره السياسي والحضاري في افريقيا
د . شوقي الجمل .
- ٢٥ - تطور النقل والواصلات الداخلية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ - ١٩١٤
د . فاطمة عالم الدين .
- ٢٦ - جمعية مصر الفتاة ١٨٧٩ دراسة وثائقية
د . علي شلش .
- ٢٧ - السودان في البرلمان المصري - ١٩٣٤ - ١٩٣٦
د . يواقيم رزق مرقص .

- ٢٨ - عصر حكيان .
 ١٠ د / أحمد عبد الرحيم مصطفى .
 ٢٩ - صفار ملاك الأراضى الزراعية فى مديرية المنوفية . ١٨٩١ - ١٩١٢ .
 د . حلمى أحمد شلبى .
 ٣٠ - المجالس النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى .
 د . سعيد محمد حمصى .
 ٣١ - دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، ١٩١٩ - ١٩٢٢ .
 د . عاصم محروس عبد المطلب .
 ٣٢ - الطليعة الوفدية والحركة الوطنية ١٩٤٥ - ١٩٥٢ .
 د . اسماعيل محمد زين الدين .
 ٣٣ - دور الأقاليم فى تاريخ مصر السياسى .
 د . حمادة محمود اسماعيل .
 ٣٤ - المعتدلون فى السياسة المصرية .
 د . أحمد الشربيتى السيد .
 ٣٥ - اليهود فى مصر .
 د . نبيل عبد الحميد سيد أحمد .
 ٣٦ - مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر .
 د . الهام محمد على ذهنى .
 وبين يديك :
 مصر والحركة الوطنية .
 ١٠ د / محمد عبد الرحمن برج

رقم الايداع ١٩٩٢/٥٠٨٩

التزقيم الدولي 1-3076-01-977-I.S.B.N

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

